

أين أنت من حبيب القلب؟

المعتصم بالله المؤمن

بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيْم
وَبِهِ نَسْتَعِيْن

أَيْنَ أنْتَ..
..مِنْ حَبِيْبِ القَلْب؟

""ماذا ؟!.. لا تذكرني؟!.. آهٍ يا أخي.. لا بدّ أن الحمى قد أثّرت عليك.. حسناً.. لعلّي خير من يذكرك..

تعرفت عليّ عندما توفيت أمي وتركت لي ثروتها واضطررتُ إلى الانتقال من روسيا إلى عندكم.. إلى عند أبينا.. لأنني كنت مازلت قاصراً في قرابة السابعة عشر من عمري وكنت أنت يومها في الثالثة والعشرين تقريباً وكانت تلك المرة الأولى التي التقينا فيها بما أنني كنت أعيش منذ أن فتحت عيني عند أمي الروسيّة بعد أن طلّقها أبي...

وطبعاً كنتُ كأيّ شابٍّ في هذا العمر مستعداً لبذل المستحيل لإثبات أنني أذكى وأقوى منك.. فكيف وأنا لست ثريّاً فحسب بل أملك شعراً أشقر وعينان زرقاوان أيضاً بينما أنت أسمر وعيناك بنيّان وكنت لتوك تبحث عن بدايتك؟!..

وهكذا مضت عدة أشهرٍ وأنا لا أترك مناسبةً للتكبر إلا واغتنمتها وكل ما كان يغيظني ابتسامتك التي كنتَ تقابلني بها في كل مرة وجوابك البسيط الذي ينمّ عن طيبتك

وحسن أخلاقك وهذا ما كنت أعتبره قمةً في السذاجة والبرود..!

أما القصة فقد بدأت عندما اضطرّ والدنا فجأة إلى السفر إلى إفريقيا من أجل تجارته وحينها لم تحتمل أنت المفاجأة لأن ذلك كان سيضطرك إلى تأجيل عرسك وهكذا زللتَ يومها وخاطبته خطاباً ما اعتاد على مثله منك.. ربما لو كنت أنا الذي قال له ذاك الكلام لما غضب أصلاً..

وهنا انتفض أبونا واقفاً والغضب يشع من عينيه ولكنه لم ينبس ببنت شفة.. ودخل غرفته وساد البيت صمتٌ رهيبٌ قبل أن نخلد إلى النوم وفي الصباح وجدنا غرفة أبي خالية وعندما لم نجد حقيبة سفره علمنا أن الأمر قد قضي ولم يعد في اليد حيلة..

أو ربما هناك.. لأنك يومها أصبت بصدمةٍ شديدةٍ وبعد ساعات من الجلوس لوحدك في الظلام خرجت من غرفتك وأنت تحمل حقيبة سفرٍ في يدك ولم أملك نفسي من أن أطلق ضحكةً ساخرة وأقول:
أين موعد خطيبتك؟!.. يبدو أن الخطب أكبر حتى من الخطيبة..!

وابتسمتُ بسخريةٍ ولكن نظراتكَ الجادّة حينها أفقدت كلماتي مرحها ومضيتَ إلى الباب فقلتُ لك: إلى إفريقيا؟ وأجبتَ بحزم: إلى إفريقيا.

وانتفضتُ واقفاً ورميتُ ثياب البيت قائلاً: سأذهب معك!
- ولم؟
-حسناً.. قمتُ بالسياحة إلى تركيا وأوروبا وحتى أمريكا ولكنني لم أجرب أفريقيا بعد.. ستكون هذه عطلةً صيفيةً مميزة!

وأسرعتُ إلى غرفتي ووضّبتُ أغراضي وملأت جيوبي بالمال وارتديتّ ملابس الصيف على الطراز الأوروبي ولم أنسَ نظاراتي الشمسية أيضاً..!

وركبنا سيارة أجرة وانطلقنا نحو المطار ولا زلت أذكر أننا لم نجد رحلةً قريبةً فسافرنا إلى أقرب مطار ومن هناك طرنا إلى إفريقيا مروراً بالبحر الأحمر وفوق الأراضي الشاسعة وكان المناظر من الطائرة ساحرة لولا أنك كنتَ تكدرها بنظراتك الشاحبة وسرعان ما هبطت الطائرة وشعرنا بحرارة خط الاستواء تلفح وجوهنا وصارت العيون من بين جفونها السود تحدّق بهذا الغريب الأشقر الذي هو أنا!..

ومضينا إلى الخارج لنجرّب شمس إفريقيا الحارقة لأوّل مرّة وهطلت قطرات العرق على وجهينا وجسمينا كالسيول.. وبعد أن صرّفت شيئاً من عمولتي أسرعنا إلى وجهتنا قاصدين المدينة التي يقيم فيها أبونا ووقفنا في المكان الذي كانوا يسمّونه موقف وأخذنا ننتظر أي حافلة تمرّ وطال انتظارنا وطال ..

ومرّت ساعتان قبل أن تطلّ حافلة أو ما يسمونها حافلة وبشقّ الأنفس وجدنا لنا مكاناً بين الزحام وانطلقت الحافلة بنا لنعاني من سفرٍ شاقٍّ وحارٍّ في برية إفريقيا الشاسعة حيث الأفق مد النظر..!

ومضت ساعة على ما يرام قبل أن تتعطل الحافلة العجوز ونضطرّ إلى النزول وانتظارها الساعة والساعتين..

فاستلقيت تحت إحدى الأشجار سَئِماً وسرعان ما غرقت في النوم وعندما فتحت عيني على إحساسٍ لاذعٍ من تحتي كانت السماء قد استعدّت لخلع رداءها البرتقالي لترتدي الأسود فنهضت فزعاً وأخذت أنفض ذلك النمل عني

وبينما كنت أعالج هذا الموضوع بدأت ذاكرتي تعود إليّ

فالتفتّ باحثاً عن تلك الحافلة ..أو أي شخصٍ منها.. وما من أثرا!

لم تكن هذه مجرد كلمات بل كانت في الواقع طامات!.. فالظلام يخيم والكلاب تعوي من هنا وهناك وأنا أصرخ.. وأسوأها أني كنت أصرخ.. لم أكن معتاداً على الحياة البرية ولا ليومٍ واحد بل إنني كنت أخاف من أخس الحشرات فكيف وأنا وحدي في الظلام وبين الوحوش؟!.. إذاً يحق لي أن أصرخ!

وصرخت وصرخت ولم أتوقف عن ذلك إلا عندما أحسست بيدٍ تغلق فمي من خلفي فاستدرت لأجدك أنت خلفي ففغرت فاهي من الدهشة وقلت متلهفاً
لسماع إيجابك:
-يعني أنه لم تفتنا الحافلة؟
- الحافلة؟!.. أولست أنت من كان جالساً هنا يراقبها بفارغ الصبر؟
- نعم ..هذا عندما كان عندي صبر أما بعد ما فرغ صبري فقد نمت.. وماذا عنك أنت؟..لم لم توقظني لنغادر؟
- ااا.. كنت مشغولاً.. وظننتك أنت تنتظرها.. حسبنا الله ونعم الوكيل..
- مشغولاً؟!.. وماذا كنت تفعل؟.. تنشئ علاقاتٍ حميمةً مع

جرذان الحقل؟.. أم مع الغربان؟.. لا تقل لي أنها مع تلك الكلاب التي تعوي..

ولكنك لم تجبني ومع ذلك لم أتركك وألححت عليك حتى اعترفت بأنك كنت تصلي طيلة الوقت إلى أن سمعتَ صراخي فأسرعت إليّ ظاناً أنني بحاجةٍ إلى النجدة.. وهنا أدركنا أننا اشتركنا في الغم وخسرنا حقائبنا وكلٌّ بسبب هواه!

وحاولنا جاهدَين أن نتبع آثار الحافلة بين شظايا حشائش السافانا في ذاك الجو المظلم وعلى ذلك الطريق اللا نهائي ولعلك تستطيع أن تذكر كم كان هذا مستحيلاً!

وأخيراً وبعد أن أنهكنا الخوف والتعب قررنا أن نبحث عن مأوىً ما ولم يطل ذلك لأني سرعان ما انزلقت قدمي وتزلجت بكامل جسمي على منحدرٍ شائكٍ ومؤذي وكانت ثواني فظيعة قبل أن يستقر كل شيء وأفتح عيني لأجد نفسي بين حشائش طويلة ألمح من بينها ضوء البدر بينما كنت جريحاً وفي حالٍ مذرية ..

والأسوأ أنني أحسست بشيءٍ يتحرك بين الحشيش من بعيد وقليلاً قليلاً كان الصوت البهيم يقترب مني أكثر فأكثر

حتى ما ظننت إلا أنني صرت بين فكي وحشٍ ضارٍ وتوقف نفَسي وتحشرج صوتي وضاقت حدقتاي ولم يرتسم في مخيلتي إلا أن ملَك الموت هو من يطلبني وأخيراً انفتحت الحشائش ليظهر... لتظهر أنت!!!

لتظهر أنت والبسمة تزين مُحيّاك وتقول لي:
-الحمد لله ربي!.. أراك بخير!

وعندها تمنيتُ لو أن الأرض تنشقّ وتبتلعني وتبتلع معي قسمات الخوف والهلع البادية على وجهي لأخفيها عنك..
فانتصبتُ واقفاً من فوري رغم كل الألم الجسماني عَلّي أخدّر شيئاً من ألمي النفسي وأخذت أشحذ صوتي المبحوح لأقول بحزمٍ مصطنع:
- ومني تتعلم!

ووسط نظراتك المستفهمة مضيتُ أمامك أمشي.. أو أحاول أن أمشي بقوةٍ وأخذنا نحاول أن نعود للطريق وقد أظلمت الدنيا من حولنا..

و مشينا ومشينا ولكن كل ما كان حولنا هو حشائش السافانا الطويلة وأخيراً قلت أنه يجب أن نتوقف حتى يطلع الصبح فنبصر الطريق قبل أن نبتعد عنه كثيراً..

وهكذا توقفنا وكسحنا العشب من حولنا لننام.. أو هذا ما كنا نظنه أما الواقع أننا لم يغمض لنا جفن وأخيراً قررت أنت أن تستغل الوقت بالصلاة بينما أخذت أنا أقضي وقتاً رهيباً بطرد الحشرات عني والترصد لهجوم الحيوانات ومضى جزءٌ من الليل قبل أن تتعب أنت وتخلد إلى النوم وبقيت أنا مستيقظاً أحلم بالنهار..ولكن هيهات!

اشتمّ الذئب البري رائحة دمي وسارع ليحصل على نصيبه من هذه الفريسة الجريحة وعلا صوت عواءه فأيقظتك مسرعاً لنهرب ولكن قد فات الأوان فقد وصل الذئب إلينا..

ولاح لنا الذئب- في ضوء القمر- من بعيدٍ يخطو بحذرٍ باتجاهنا فحاولت أن أركض ولكن رجلاي تسمرتا وسرعان ما سقطتُ على ركبتي من شدة الخوف والتفتُّ إليك مستنجداً فصدمني أني وجدتك تصلي .. الآن يا أخي؟!

وكادت أسناني تتكسر من شدة الاصطكاك بينما كان ذلك الذئب يتبختر قادماً إلينا حتى دار حولنا دورةً وجلس أخيراً بجوارك ووضع رأسه على يديه يراقبك وأنت تصلي بكل هدوء..!

وعندما أنهيتَ صلاتك مسحتَ رأسه لبعض الوقت وكان يبدو سعيداً بذلك ثم نهض وألقى عليك نظرةً أخيرةً ومضى في حال سبيله يتهادى..!

واستلقيت أنت لتنام دون أن يخطر لك أني قد طرأ علي شيءٌ أو أني بحاجةٍ إلى المساعدة بينما قضيت أنا بقية الليل أحاول فك تشنج عضلاتي الشديد حتى أستطيع المشي وأنا أفسر ما حدث لنفسي وأقول: ربما لم يكن جائعاً..!

وأخيراً طلع الفجر بشق الأنفس وبدأ الضياء يزحف على الكون فتيممنا بالتراب وصلينا الفجر ثم حاولنا أن نجد الطريق ولكن هيهات بين كل هذا العشب الطويل..

ولمحنا ماءً فاقتربنا منه عسى أن نجد أحداً من بني جنسنا ولكننا وجدنا آحاداً من غير جنسنا.. وجدنا فيلةً ونسور وضباع صغيرةً كانت تسترق الشربات أثناء غفلة الفيلة!

وهناك من أنواع الطيور ما عرفنا منها وما لم نعرف..وأمام كل هذا كنا نراقب هذه المخلوقات العجيبة مشدوهين ثم ما لبثنا أن اعتدنا المشهد فحاولنا أن نلف حول البركة إلى أن تركتني فجأة واتجهت نحوها وصرخت:

_ مجنون!.. عُدا!

ولكنك لم تلتفت إلي واقتربتَ شيئاً فشيئاً من الماء بكل ثقةٍ وكأنك لوحدك !.. ورمقتك الفيلة بغضب في البداية ولكن العجب كل العجب أن أحداً منها لم يمنعك!

وهكذا أخذت تتوضأ بكل طمأنينة بين تلك الوحوش وسط نظراتي وقد كان فكي متدلياً من فرط الدهشة.. وعدتَ إليّ بعد أن أعدت صلاة الفجر بالوضوء و قلت لي:
_إن أردتَ الوضوء فانطلق وإلا فدعنا نمضي..

وبما أني لا أريدك أن تشعر بأنك تفضلني بشيء فلم ألفظ ببنت شفة بل بدأتُ المسير ومئات الكلمات تتخبط في رأسي..

وبدا لنا دخانٌ من بعيد فظننا أنها نار الآدميين فهرولنا نحوها واستغربنا أن كثيراً من الحيوانات كانت تركض بالاتجاه المعاكس حتى وجدنا صعوبةً في المرور من بينها وطلعنا على حرف منحدر ترابي..

وما إن اقتربنا حتى تبين أنها نارٌ ما أنزل الله بها من سلطان على طول الأفق تكسح البلاد والعباد ولم أخرج من

روعتي إلا عندما قلتَ هامساً:
_ لا بد أنها تلك النار التي تشعلها القبائل لتحرق العشب وتخصب المرعى..

وحاولنا أن نبتعد عنها ولكن المنحدر خاننا ووشى بنا فقد تكسر التراب من تحت قدمي فتمسكت بك عسى أمنع جسدي من السقوط ولكن على العكس من ذلك سقطنا سويةً ويبدو أنه قد أغمي علي لأنني عندما فتحت عيني وجدت نفسي ملقىً وقد علقت رجلي اليسرى بالأحجار وحاولت نزعها جاهداً ولكن الألم زاد ودون ما جدوى..

ومكثت قليلاً قبل أن أراك قادماً بوجهّ مكفهر وقد عصبت يدك بقطعةٍ من ثيابك كأنها مجروحة بينما كنت تحمل بالأخرى سكيناً وقلت لي بحزن يعتصر كلماتك:

- أخي.. الواقع أننا على وشك أن نشوى ولا أظننا نملك أكثر من نصف ساعة للتصرف.. وأحيطك علماً بأنني قد حاولت أن أحرر رجلك من الأحجار دونما فائدة فالحجارة أثقل من أن أحملها بيدٍ واحدة بما أن يُسراي مجروحة وبمجرد استعمالها تبدأ بالنزيف ولذا...

وصمت لسانك قليلاً بينما أخذت عيناك تحكي الأسى

وأردفت:
- أخي ..لا بد من قطعها
وبدون وعيٍ صرخت وقد تطاير الشرر من عيني:
- لاااا.. أبداً... أتريد مني أن أعيش كسيحاً لآخر عمري؟؟
- للأسف.. ولكن هذا أفضل من الموت..
- بل الموت أفضل من هذا.. وما قيمة الحياة والجميع يستنقصني ويزدريني؟!.. أنا برجلٍ واحدة؟! ..لاااا.. وألف لا..

وسكتُّ قليلاً وأنا ألهث غضباً ثم قلت حازماً:
- اذهب أنت.. انجُ بنفسك.. أنا قررت أن أموت!
وألقيت نفسي على التراب مستلقياً بينما وقفتَ وقد أخذت الحيرة بخناقك ..ولكن ردة فعلك كانت بكل بساطة أنك استدرت نحو القبلة وأخذت تصلي كعادتك..

فأخذتُ أتمتم حُنقاً :
-آآه.. أهذا وقت الصلاة ؟!.. ألا تحسن أن تمشي خطوتين بغير أن تصلي؟!

وهذا على الرغم من أنني أقول عن نفسي الآن: يا لغرور الشباب!.. أكنت أريد أن ألقى الله بمثل هذا الهراء!

ومرت عليّ دقائق كالجمر وقد تعشقت رائحة الحريق

المريعة في منخرَي وأخذت أتخيل كيف ستكون وسامتي بعد دقائق..

وأحسست بحركةٍ من وراءي فتحاملت على نفسي حتى التفت ولم أدرِ أي مصيبةٍ سقطت على رأسي عندما رأيت عملاقاً أسود خلفي.. شعرٌ واقف بشكلٍ مقززٍ وشفاهٌ كالمناقير .. أسنانٌ على الرقبة وعظامٌ وجماجم طيورٍ على الخصر كأنه الشيطان!..

وبلا تفكير صرخت متلعثماً :
- إذاً كان ما يقولونه صحيحاً!.. هناك ملك موت وهو.. يظهر لأهل النار بصورةٍ بشعة..!
وبدأت أرثي نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت وتمنيت لو يطول عمري ولو يوماً حتى أصلح ما بيني وبين ربي..

كل هذا كان في لحظة.. ولحظتها أنهيتَ أنت صلاتك والتفتّ وقد ملأك الذعر من كلماتي ظاناً أنني أحتضر ولكنك حسمت الموقف قائلاً:
- هوّن عليك يا أخي.. هذا إنسانٌ من لحمٍ وعظم وليس الموت ولا شيئاً آخر..

في الواقع لم يكن قد سبق لي أن رأيت أحداً من رجال

القبائل الإفريقية إلا في الصور ولكن الواقع وصعوبة الموقف جعلاه مختلفاً على أية حال..!

وهنا تقدم إلينا بعد أن أدرك أننا مسالمون وبعضلاته الضخمة وخبرته خلص رجلي في ثوانٍ!
وصار يشير إلينا ويكلمنا بكلماتٍ عجيبة لا تمتّ للغات بصلةٍ كما بدا لي.. ثم فهمتَ منه يومها أنه يريد أن نذهب معه وحين وجدني غير قادراً على المشي أمسك يديّ بقبضتين من حديد وحملني على ظهره وصار يخوض بين الأحراش بمهارةٍ وسرعةٍ كبيرتين.. وعلى الرغم من أنك وجدت صعوبةً في اللحوق به إلا أنك فعلت في النهاية!

وهكذا ودعنا النار الفاجرة بكل أحزانها وفجائعها ووصلنا منازل القبيلة حيث كان بإمكاننا أن نرى الكثير من أفرادها الغريبي الطراز وهم يحدقون بالقادمين الجديدين بنظراتٍ جائرة..

وأدخلني الرجل بيته ورماني بغلظٍ على كومةٍ من القش وخرج فتأملت الكوخ من حولي وما فيه من غرابةٍ وبساطة.. ومضى وقتٌ طويلٌ دون أن يحدث شيء وأنهكني وجع رجلي وبقية جروحي بعد أن سهرت الليلة السابقة فغلبتني عيناي رغم كل ما كان يدور في خلدي

وغططت في نومٍ عميق..

عندما عاد إلي إحساسي شعرت بأشعة الشمس تدفئ وجهي ففتحت عيني لأسترجع ذاكرتي عن البارحة فنهضت ونظرت من النافذة فإذا هو الصباح ونظرت جواري فإذا هناك بعض الحساء وحبتين فاكهة.. كنت جائعاً جداً فأكلت الحساء رغم أنني لم أستسغ مذاقه كثيراً ولكنني أكلت الفاكهة بشهية ومع ذلك لم أشبع فأخذت أحدق إلى الباب وفي هذه اللحظات دخلت أنت منه وقد كانت ثيابك متسخةً جداً وقد ازددت اسمراراً ولكنك لا زلت محافظاً على بسمتك فحييتني وقلت:

- أخي.. يجب أن نحمد الله على النجاة من تلك النار.. ولكن اعلم أننا في حالٍ تتطلب صبراً...
- صبر؟!.. ولم الصبر؟؟.. وفي كل الأحوال فأنا لن أصبر.. ولكن ما بالك أنت؟.. ولم صارت ثيابك هكذا؟
- لأنني قضيت بقية البارحة أعمل في حقل الرجل الذي أنقذنا بإذن الله..
- تعمل؟؟.. أهكذا واجب الضيافة عندهم؟!
- ضيافة؟!.. ومن قال لك أننا ضيوف ؟!.. لقد جاء بنا على سبيل الغنيمة!
- غنيمة؟؟؟

ووضعت يدي على رأسي من هول الصدمة ثم أردفت وأنا أصرخ:
- أنا أعمل السخرة؟؟... مستحيل!..
- ليس كل ما يتمناه المرء يدركه....
- ....ولكن الرياح تجري بما تشتهي السفن.. الحمد للّٰه أنني مصاب.. ولست أنفع لأي عمل!

وسكت قليلاً ثم أردفت:
- وأنت.. كيف تقبل بهذه الإهانة بكل تلك البساطة؟؟
- وماذا أفعل؟
- اهرب.. مثلاً..
- وأترك أخي المصاب لوحده؟!
- ومن قال أن أخوك المصاب سيبقى هنا؟!...

وهنا دخل ذلك الأسود الكوخ ووجّه حركاتٍ آمرةً إليك بأن تذهب للعمل وما إن خرجتَ حتى أمسك كومةً من القش ورماها إليّ وهو يريدني أن أعمل له سلالاً وصحوناً من القش.. وقد دُهش عندما أفهمته بغبطةٍ أنني لا أحسن شيئاً من هذا.. وقد ظننت أن هذا ينفعني ولكن هيهات فسرعان ما أحضر لي من يعلمني وأجبرتني عصاه رغماً عن أنفي أن أبدأ العمل..

ومن الغرابة أن قبعة القش التي كنت أضعها طيلة الوقت هي ما أثارت انتباهه فطلب مني أن أصنع له منها وصار يبيعها ويوماً على يوم صار الكثيرون من أهل القبيلة يرتدون منها ..

وطالت أيام نقاهتي وأنا أعمل هذا القش بشكلٍ رتيبٍ وممل.. وكرهت نفسي يوم فكرت بالسياحة ورثيت لعطلتي الصيفية الكئيبة وأخذت أخطط وأحلم بالهرب والحرية .. وجاء اليوم الذي شفيت فيه قدمي فساقني ذلك الأسود إلى العمل في الحقل معك..

وكان من سوء حظي أنني فشلت في الهرب في المرة الأولى وكشف أمري فقُيّدت وفقدت حتى حريتي الضيقة..

ولست أنسَ أيام شقائي الأولى.. فظيعةٌ من الفظائع تلك اللحظات وأنا أُفجَع بكبريائي واضطر للعمل .. وأي عمل؟!.. حصادٌ وفلاحة.. يا لسواد تلك الليالي التي كُلِم في نهارها كبريائي الغالي!

ومن ناحيةٍ أخرى فقد كان جسمي الأبيض الذي نشأ على الرفاهية والدلال يأبى مثلي كل الإباء أن يتحمل ضرب

المنجل أو رفع المعول أو حفر الحفر.. ولك أن تتخيل وجع الظهر وتعضيل الأعضاد والأفخاذ وتقرُّح الأنامل الغضة الناعمة..

ولا تسألني عن وسامتي في تلك الشمس الحارقة.. أما من عجيب ما أذكره عنك في هذا أنك كنت تعمل بالحصاد بيدك السليمة وسط كل تلك الشمس الحارقة ومع ذلك لم تكن تتعرق أبداً أو تصاب بالحر مطلقاً وكنت أظن في البداية أن هذا أمرٌ طبيعي أو أنك قد تعوّدت وسرعان ما سأعتاد أنا..

ولكن بعد أن بدأتُ العمل اكتشفتُ أن هذا مستحيل في شمس إفريقيا التي لا ترحم على الرغم من أنني كنت أرتدي قبعة القش خاصتي بينما أنت لا!!..

وبعد أيامٍ من تجاهلي الأمر نفذ صبري وملأني غيظي فسمحتْ لي نفسي أن أتخلى عن شيءٍ من كبريائي وأسألك عن سر هذا الأمر العجيب.. فتصديت لك في الحقل مما أثار حفيظتك وسألتك:

- هل لي أن أعرف لم تستأثر بذاك المرهم دوني؟.. كنت أظنك كريماً ومهتماً بأخيك فما بالك أصابك الشحّ عند الصعاب؟!

فنظرت إليّ باستفهام ثم تبسمت عندما فهمتَ مقصدي ووضعت السلة من يدك وقلت:
- نعم وكرامة.. سأعطيك منه!.. كان عليك أن تسألني عنه منذ البداية..

فخجلت من نفسي بعض الشيء ولكنني تمالكت جوارحي لأبدو قوياً وأخذت أنظر متلهفاً إلى يديك لأنظر من أين ستخرجه ولكنك عوضاً من ذلك نفضت يديك ثم أمسكت بيدي بلطفٍ وقلت:

- في البداية أحرقتني الشمس ونالت مني ما شاء اللّه وخاصةً أننا أهل المدينة لا تكاد الشمس تعرفنا ولا نعرفها ولكن هداني اللّه إلى الالتجاء إليه عندما كنت أصلي الفجر فأخذت أدع ُ في قنوته عندما رفعت يدي أن يرفع اللّه عني شرّ هذه الشمس..
وكما كان اللّه دائماً محسناً قديماً لم يخيب رجائي واستجاب لي بفضله وحسن كرمه!.. ولن أقول لك صيغةً محددة فالمهم أن تدعو راجياً ومن قلبك بأي لهجةٍ وبأي لغة.. فاللّه سميعٌ عليم وبعباده جِدّ رحيم!

ويبدو أنني لم أستطع أن أخفي دهشتي من مرهمك هذا لأنك أجبتني:

- لا تعجب.. صحيح أنه ليس مرهماً ملموساً كما كنت تظن ولكنك سترى أن الشمس ستصبح أبرد من الظل!

وتغير وجهي منكراً في اللحظة التي صرخ علينا ذاك الأسود من بعيد أنِ اعملا .. فتفرقنا راغمَين..

وطيلة الليل أخذت أُكرِه نفسي المتعجرفة على تجربة هذا المرهم.. إن صحّ أن أسميه كذلك..نظراً لما أعانيه من الشمس ولِما قد يكون من منفعته وأخيراً عند فجر ذاك اليوم رضخت نفسي وحاولت جهد استطاعتي أن أدعو راجياً.. حسب ما سمح لي به غرور الشباب طبعاً..

لم يكن هذا سهلاً على شخصٍ لا يحافظ على صلاته أصلاً..إذا لم أقل أنه بالكاد كان يصلي.. وبهذه الحال الغير مقبولة من الغرور وعدم اليقين لم يكن هذا المرهم لينفعني طبعاً.. ولكن لم يكن بإمكاني أن أنكر عليك حقيقة نفع هذا المرهم لأنك كنت تستفيد منه كل يومٍ أمام ناظرَي!

ومضت الأيام الرتيبة الطويلة تتبختر على عذابي وآلامي أما أنت فكان أكبر همك أن تصلي وبما أنك كنت تستطيع أن تفعل فعلى الدنيا السلام!

ورغماً عن أنفينا قضينا معهم أكثر من ثلاثة أشهر تعلمنا فيها شيئاً من لغتهم وتقاليدهم السخيفة وعاداتهم الدينية الوثنية التي لا تمتّ للعقل بصلة ولكن الشيء الوحيد الحميد الذي استخلصته من ذلك أنهم بشكلٍ عام أناسٌ بسطاءٌ طيبون ولو باستثناء بعضهم..

وفي أحد الأيام الرتيبة وبينما كنت أتثاءب وأنتظر بفارغ الصبر الشمس أن تؤذن بالرحيل كي يحين وقت النوم تناهى إلى سمعي صوت ضحكٍ مكتومٍ من بين الأجمات فاقتربت قليلاً لأرى ضبعاً مرقطاً يدور حول شيءٍ ما وهو يطلق ضحكاتٍ مخيفةً من هذا النوع..

فدقّقت النظر لأرى حول ما يدور فبان لي شيءٌ صغيرٌ أسود يتحرك وما لبثت هنيهة حتى أدركت أنه طفلٌ من القبيلة في حوالي الثامنة أو التاسعة ولاحظت من الأقراط والألوان الذي يضعها أنه ابن الزعيم..

وسرعان ما علت البسمة وجهي وصرت أشير لك من بعيد كي تأتي وما إن جئت حتى قلت لك منفعلاً مغتبطاً :

- تعال ومتِّع ناظريك بالانتقام!!

- انتقام؟!

- نعم.. هيا نذهب غيظ قلوبنا برؤية ابن الزعيم الغر وهو

يلقى مصرعه !
- ماذا؟!.. لكنه طفل..

وعلت ضحكةٌ أخرى المكان فرميت نفسك من بين الأجمات في ذاك الجو المغربي غير أبهان لخطر ووقفت بمعولك متصدياً لذاك الضبع الذي أصيب بالصدمة لرؤيتك بعد أن ضمن فريسته.. وأعاد حساباته على ما يبدو لأنه تراجع قليلاُ قليلاً وعوى عواءً خفيفاً ثم انسل هارباً دون ما هجومٍ أو طمع..!

وصرخ ذاك الطفل منكلاً بالضبع كأنه هو الذي هزمه ثم قال لك شيئاً لم نفهمه وانطلق إلى أبيه لينبئه النبأ.. أما أنا فقد امتلأت غيظاً وضربتُ ظهرك قائلاً :

- أناديك لتشاركني فتفوّت علينا الفرصة يا أحمق!
- أخي.. يجب أن تدرك أن الأخلاق والمبادئ فوق كل شيء مهما كان الثمن.. كما أنه مجرد طفلٍ لا ذنب له! على أية حال..
وهنا جاء ذاك الأسود وأخذنا للنام.. وما مضى قليلٌ من الوقت حتى جاؤوا وأخذوك وبتّ الليلة وحدي..

وعندما استيقظت صباحاً وجدتك جالساً بجواري مهموماً

وكأن مصائب الدنيا قد سقطت على رأسك وعلى الفور سألتك :
- أين كنت البارحة؟
- ماذا أقول لك؟!.. ذاك الصبي.. حكى لهم عني وعن الضبع ..وبما أنه ابن الزعيم فقد قرر أن يثبت لهم صدقه ولذا قرروا أن يأخذوني إلى عرين الأسود ليختبروا ذلك..
- وكيف فهمت كل هذا؟
- حاولت ربط الكلمات التي فهمتها.. إن معيشتنا معهم هذه الشهور علمتنا لغتهم شئنا أم أبينا..
- صحيح.. فكما يقولون إن أفضل طريقةٍ لتعلم لغةٍ أخرى هي العيش وسط أهلها الذين لا يحسنون لغة المتعلم.. على أية حال بما أنك أنت فلا مشكلة فبمجرد أن يراك الأسد سيموت رعباً منك!

وانفجرتُ ضاحكاً ولكن نظراتك الكئيبة جعلت ضحكتي سُخفاً فقلت باستغراب:
- أحقاً أن هذا ما يحزنك؟!.. أنت الذي تحديت الفيلة وأخنعت الضبع..أنت قاهر الوحوش!!

ولأول مرة لم تستطع أن تأخذ كلماتي بحلمك فانفجرت قائلاً:
- وأنت أيضاً تقول ذلك؟!.. لا قاهر إلا الله!!.. لا قاهر إلا الله!!

وتنهدتَ بغضب ثم قلت وأنت تحاول أن تكون لطيفاً:
- أخي!.. كن حذراً من مثل هذا.. لعلمك أنا ما كان ولا يكون لي أن أفعل ذلك إلا بإذن اللّه.. كل ما في الأمر أنني ألجأ إلى اللّه كعبدٍ ضعيف بكامل قلبي وذلك من أجل هدفٍ نبيل.. وذلك ليس مرتبطاً بي أنا فقط.. فكلنا عباد اللّه وكل الحيوانات خلقه ونواصيها بيده..

- حسناً فهمت.. لم أطلب منك أن تعطيني درساً في الدين.. فكلما قلتَه ليس يتنافى مع حالك الآن..

- على العكس تماماً.. فداء حسن النية هو العُجب بالنفس.. وهدفي من وراء هذا سيكون بالتأكيد ليس نبيلاً بل هو إثبات نفسي في أعينهم لما يترتب على هذا من منافع.. ولك أن تتخيل معي مدى صعوبة إخلاص النية عند تلك اللحظات الحساسة!

ولم يخفَ علي من صوتٍك المتحشرج أنك حاولت إخفاء دموعك.. فانفتلتَ فوراً وبدأتَ الصلاة كعادتك ولم أمكث كثيراً قبل أن يأخذني ذاك الأسود إلى العمل..

وحلّ الظهر قبل أن يصلني عنك خبر .. ولكنني لا حظت أن

جميع أفراد القبيلة رجالاً ونساءً.. شيوخاً وأطفالاً انطلقوا صوب الشرق .. حتى ذاك الأسود الذي يستخدمني لم يكن يراقبني فلذا عرفت أن الجميع أسرعوا ليروا معركتك أو مصرعك!

فاحتلت على قيدي وبما أنني لم أكن مراقباً فقد أتممت فكّه وانطلقت أنا الآخر صوب الشرق فلعلّي -أنا أخوك- كنت أحق الموجودين بمعرفة مصيرك!

وهكذا حثثت الخطا أتبع الآثار العميقة التي تركتها قبيلةٌ كاملةٌ على الأرض فوصلت بسهولةٍ إلى مكان تجمعهم ولكني لم أجد لنفسي مكاناً ولا بصعوبة!

ولكن وإن كنت محروماً من النظر فقد كنت أستطيع شم رائحة الأسود كما كانت أصوات زئيرهم المدوية تكاد تصم أذناي..

وحاولت الاقتراب قدر الإمكان فسمعتهم يقولون أنها ثلاثة لبوءاتٍ مع أشبالهن ..
وبمجرد أن تحسست تلك اللبوءات الخطر على أشبالهن زمجرن بغضبٍ وهنا ركضت الفتيات الصغيرات مبتعداتٍ من الخوف وتراجعت النساء قليلاً ..

فوجدت الفرصة وحشرت نفسي بين صفوف الرجال لأجد أن العرين بعيدٌ بعض الشيء كمسافة أمان ولكنني استطعت بسهولةٍ رؤيتك منتصباً بجوار العرين..لم تكن في أحسن حالاتك فقد كنتَ من معرفتي بك في حالٍ من الخوف والتسليم ..

ووقفت اللبوءات هنيهة لتتفحص فريستها ثم تقدمت أحدها وتوثبت لتنقضّ عليك.. وكانت ردة فعلك معاكسةً لكل التوقعات التي كانت تُنسج حولك وتُنتظر منك فقد استدرتَ حتى كنت عكس اللبوة -..

ففهمتُ أنا أنك استدرتَ نحو القبلة كعادتك- وصرخت بأقصى صوتك وكأنك تريد أن تغلّف نفسك بكلمة:
- الله أكبر!!!!

وخررتَ ساجداً كما في الصلاة.. ومضت لُحيظاتٌ بسيطةٌ أو لم تمضِ قبل أن تقفز تلك اللبؤة عليك.. وأدارت الشابات وجوههن وعبس الرجال وذاب ابن الزعيم بالعار بينما صاح الشبان صيحات الخيبة والسخرية... أما أنا فقد أخذت أتخيل ردة فعل أبي عندما أنعاك إليه بمثل هذا النبأ..!

كان موقفاً مقيتاً بحق.. وخاصةً عندما انضمّت اللبؤتان الأخرتان إلى وليمة الأولى.
- ولكن مهلاً..!

صرخ أحد الشبان من فوق الشجرة:
- انظروا جيداً!

وتطلّعت العيون بكل شغفٍ وفضول لترى تلك المعجزة.. نعم.. كانت بالنسبة لأفراد القبيلة معجزةً حقيقيةً لا يمكن أن تكون إلا من صنع إلهٍ قويٍ قديرا!

فتلك الحيوانات الوحشية الشرسة التي لم يعرفها الإنسان إلا كآلاتٍ للقتل والتمزيق لا تعرف الشفقة على الفريسة ولا الرحمة كانت.. كانت تعانقك وتلعق وجهك كأي جروٍ صغير !!!... أما الأشبال فقد أخذت تلاعبك وتدور حولك وكأنك واحدٌ منها جاء بعد سفرٍ طويل!!!

كان هذا المشهد يلتمع في عيون أفراد القبيلة المفتونة بهذه العظمة.. وما إن خرجتَ من بين الأسود وشكر اللّٰه يزين محياك حتى تلقفتك الأيدي وحملتك الأعناق وأكبرتك النفوس وسرعان ما شكلوا موكباً عظيماً ودوى صوت بني آدم وهم يهللون جميعاً، زُرافاتٍ ووِحداناً بما ناديت أنت

حين استجاب اللّٰه لك:
- اللّٰه أكبر!!!!... اللّٰه أكبر!!!!
وإن كانوا لا يفهمون معناها!!

ومر الموكب الكبير أمام نظراتي المشدوهة وفكي المتدلي شبراً من هول ما رأيت..

- أخوك الذي لطالما ازدريته صار على الأعناق؟!..

هذا ما كانت نفسي تردده بحرقةٍ أغشت علي الطريق حتى أني لم أعد أدرك ما أفعل وأخذت أمشي وأمشي وأفعل بغير ما وعي.. ولم أستيقظ إلا على صوت ذلك الأسود الذي يستخدمني وهو يقول لي بكل غلظ:
- هيا.. يكفي عملاً هذا اليوم..

وفاجأني كلامه فأنا لم أكن أعمل!.. ونظرت حولي فإذا بي في حقله وشعرت أن يدي ثقيلة فرفعتها إلى ناظري فإذا فيها المعول ووجدت أنفاسي سريعةً كما لو كنت قد أنهيت عملي للتو..

-إذاً كنتُ أعمل؟!!

هذا ما كنت أردده مستغرباً وأنا أعود إلى الكوخ.. ولكن هل كان ذلك حلماً؟!

وصرت أتمنّى أن يكون كذلك ولكنّني انتبهت فجأةً أنني لم أكن مقيداً ووجدت على يدي أصباغاً كانت قد نتجت عن مزاحمتي لشبان القبيلة الذين يتباهون بأصباغهم..

وبما أنك لم تأتِ للنوم فقد أدركتُ أخيراً أني عدت إلى الحقل وأنا ساهم وأخذت أعمل بدون وعيٍ مني وأسوأ ما في ذلك أنني أضعت فرصة الهرب كما أدركتُ مغتاظاً أن علو أمرك كان الحقيقة.. كان الواقع...الواقع المرير....

هذا في نظري أما الصدق فأنا لم أره مريراً إلا من مرارة نفسي وغيرتها وغلظ طباعها.. ولا تعجب من أني أصارحك بهذا وغيره فالاعتراف بالذنب فضيلة وأنا أذكر لك هذه القصة بعد أن صرتُ أنظر إليها نظر المعتبر غير المفتخر ولا المتحسِّر..

وفي الليلة الأولى كنت لم أستوعب الأمر تماماً فلريما لهذا استطعت النوم وفي اليوم التالي حاولت أن أعترض عن الذهاب إلى العمل ولكن العصا رمتني ثانيةً إلى الشقاء وكان النّتيجة الوحيدة لتمردي هو أنني حُرمت من الفطور..

وهكذا لم أجد بداً من أن أنقل الخضر والثمار إلى سوق القرية كما كان مقرراً أدوس جوعي ووجعي مع كل خطوة.. وعندما انتهيت كانت الشمس هي الأخرى قد انتهت من الوصول إلى كبد السماء فتناهى إلى سمعي صوتك.. صوتك وأنت تؤذن..

كانت تلك أول مرة تسمع تلك السهول الإفريقية الأذان.. وأقبل أفراد القبيلة إلى صلاة الجمعة زُرافاتٍ ووِحداناً بعد أن تعلموا الصلاة.. ولم أستغرب أبداً فهؤلاء الناس البسطاء على دين زعيمهم.. فيكفي أن يسلم زعيمهم حتى يسلموا جميعاً..!

وعلى ألحان صوتك الشجي أدركت أن هذا الصوت الجميل قد شرب من كأس الشبع والراحة التي حرمتها أنا.. ولم يفرق بيني وبينك إلا تلك القوة الخارقة -كما كنت أسميها- التي لك وليست لي..

وهنا تولّى الشيطان اللّعين النفخ في ذلك المزمار وكلمةً وراء كلمةٍ شعرت أن قلبي صار كالجمرة ولا أدرِ إن كانت نفسي أو الشيطان هو الذي يصرخ بي:
- منذ متى كنت ترضى بالذل؟؟!..منذ متى كنت ترضى بالهوان؟؟!.. منذ متى كنت ترضى بأن يكون هذا الغرّ أفضل

منك؟؟.. أنت الذي هو أنت.. أنت أنت!!!

وخرج الناس من المسجد الجديد بينما كنت أخيراً قد امتلأت حميّةً وغيرة.. ولا أدرِ إن كنت قد حاولت أن أكبح تمردي أو أنه كان صوت العقل فقط..
وبضربةٍ متهورةٍ سكبت كل الثمار من السلال التي معي والتي لغيري وصرت أدوسها بأغلظ وأعنف ما أستطيع وأنا أضحك بشكلٍ هيستيري!

وكان ما ساعدني أن الرجال كانوا كلهم في المسجد فاستغللتُ الفرصة وأفسدتُ المحاصيل ولكن سرعان ما انتهت الصلاة وتلقفتني الأعين السوداء بكل حقد..

وانهالوا علي ضرباً ولكماً وصرخ أحدهم أن اقتلوا هذا الأبيض المشؤوم ولكن عجوزاً أوقفهم جميعاً ونصحهم أن يرفعوا أمري إلى زعيمهم الحكيم..

وفعلاً هذا ما حدث وأوقفوني بين يدي زعيمهم فقال لي والهيبة تقطر من وجهه:
- لم فعلت هذا أيها الأبيض؟.. فلعلّ لك من هذا عذراً..
- هه؟!.. ربما لأنّني قد مللت من اللّون الأبيض وقررت أن أصبح ملوناً !.. بالأزرق والأخضر والبنفسجي!!

وانفجرت ضاحكاً بكل سخرية وقد كنت أعني بذلك ألوان الكدمات التي نلتها من الضرب.. وبالتأكيد لم يرضَ أحدٌ عن أسلوبي هذا في مكالمة الزعيم ولكنه أوقفهم من أجل أن.. من أجل أن يشاورك بأمري وقد كنت جالساً إلى يمينه وقد ارتديت ثوباً أبيض بعد أن اغتسلت من أثر الفلاحة وعدت نظيفاً..

وتبادلنا أنا وأنت النظرات.. كان من الواضح أن أحداً لم يحزر أننا إخوة فأنت تشبه أمك وأنا أشبه أمي وللأسف نادراً ما كان يجتمع شبهنا بأبينا..

وهكذا سألك الزعيم:
- ماذا يقول ديننا في مثل هذا المعتدي يا شيخ؟
ولا أظن أن أحداً من الحاضرين قد غاب عنه المحاكمة السريعة التي أجريتها في نفسك ولكن أحداً منهم لم يحزر السبب.. فقلتَ أخيراً:
- ينبغي أن يكون المعتدي ضامناً لكل ما أتلف..

وبدوتَ متلكئً ثم قلتَ بصوتٍ خفيض وكأنك تختلس الكلام قبل أن تدري نفسك:
- وأن يُعزّر أيضاً لكيلا تسوّل لأحدٍ نفسه بعمل شغبٍ كهذا..

وأعلن الزعيم عن موافقته لرأيك وبما أنني لا أملك مالاً هنا فقد حكموا علي بالعمل سنةً عند كل من آذيته بدايةً من ذلك الأسود البغيض وحتى خمسة أشخاصٍ آخرين..

وأحضروا لي جلاداً فجلدني ثلاثين سوطاً كانت كفراق الأهل وبقيت حرقةً مدى الدهر!

ويا لها من ليلةٍ تلك الليلة وكأنه ليس من بعدها ليلة.. ليلٌ أدهمٌ بهيم وحقدٌ أسودٌ دفين وأنا بينهما أتقلّى في مضجعي من نار السياط لم يغمض لي جفن ولا برد لي صدر..!

وزحف الفجر أخيراً بعد طول عذاب وجاء ذاك البغيض ليسوقني إلى العمل وكم كانت دهشته عظيمة عندما أبديت ممانعةً شديدةً رغم كل ما لقيته من الأذى..ولم يصب بكثيرٍ من الحيرة ولم تراوده شفقةٌ بل سارع إلى عصاه يستعملها بلا أدنى رحمةٍ أو تفكير ولكن هيهات!

ليس ابن الروسية اليوم مثله البارحة.. ليس حمّام النار كحمّام الماء.. ليس إغضاب النمر كإغضاب الثعلب.. ليس أي شيء مثل أي شيءٍ الآن.. صارت الدنيا كلها تساوي صفراً في عيني.. وحانت ساعة الصفر!!

ورغم أن العصا قد أجبرتني على الانحناء فقد جعلت من دائي دوائي فبحركةٍ شددت صلبي وبنطحةّ ضربت فكه ضربةً ألقته إلى الوراء وقبل أن يستعيد توازنه كنت بلكمةٍ كالسكين قد طعنت بطنه!

وحاول بقوةٍ أن يدفع عن نفسه هذا الهجوم الغير متوقع وكاد ينجح لولا أنني كنت قد سحبت سكينه و.....

وعلى الدنيا السلام.. تخلصتُ من ظالمي.. هذا هو المهم.. وصرتُ حراً.. هذا هو الأهم.. وخرجت من الباب منتشياً بانتصاري فلم تكن الكدمات التي تغطي وجهي أو جسدي بأقوى من سعادتي وتنشّقت ريح الحرية الممزوجة بعبير المطر..

نعم.. المطر لأنها كانت تمطر بغزارة وكانت قدماي تغوصان في الطين وبشكلٍ عام لم يكن هناك أحدٌ خارج كوخه فهو لم يكن مجرد مطر بل كان عاصفةً موسميةً فريدةً من نوعها ربما أشبه بهذه التي في نفسي..!

وأخذ البرق يضرب ويحرق ودوي الرعد يرجف الأفق ولكن هذا لم يكن يشكل عندي خطراً فقد خرجت لتوي من ألف خطر .. وهكذا مضيت أحث خطاً غير حذرةٍ لا وجلان ولا

خوفان...

وبلغت أطراف القرية وكدت أقطعها لولا أني تعثرت بجثة حيوان ونهضت محاولاً إزالة الطين عني عندما لمحت شيئاً يتحرك من قريب فاقتربت أكثر فإذا به شبح إنسانٍ يصلي.. وسط المطر؟! ..نعم وسط المطر!

طبعاً لم آلُ كثيراً من الجهد قبل أن أعرف أنه أنت ولكن لِم وسط العاصفة؟.. وهكذا وقفت عند رأسك بينما كنت تنهي صلاتك فسلمت ونهضت لتراني.. أنت الآخر لم تألُ جهداً لتعرف أنه أنا أخوك الذي حكمت عليه بالألم وسببت له كل أسى..

نظرت إليك نظراتٍ لم تكن وديّةً طبعاً بينما حاولت عيناك أن تستبيحني عذراً قبل أن تخلع رداءك وتغطي به جسدي النحيل وتعطيني رغيفاً من الخبز الطري قائلاً بتودد:

- أنا أيضاً لم أستطع النوم هذه الليلة وفضلت أن أبيت بالعراء بردانا على أن أكون مرتاحاً بينما أنت تتعذب..

لم أجبك إلا بنظراتٍ حارقة ألهبت سهماً مرّرتُه من عينيك إلى قلبك ليفلقه ويُسَيمه سوء العذاب.. فسرعان ما

غضضت نظرك عن عيني وأردفت بتنهد:
- يجب على المرء أن يقول الحق ولو على نفسه أو أهله كنت أود لو لا أقول لك هذا.. كان الحق لك بما أنك كنت مظلوماً أما الآن فأصبح عليك عندما اعتديت على الآخرين وصرت ظالماً..
- لا عليك يا أخي.. إذا تحمّلت جوابي هذا فلن أطلب منك أي شيءٍ آخرا!

وكانت كلماتي هذاه قد جعلتك تتفاءل فرفعت عينيك المتفاجئتين لترى جوابي وهو أني قد رفعت سكيني لأهوي بها عليك ولكن جوابك في الواقع هو من صعقني..

فكما فعلتَ مع تلك الفيلة أو مع ذاك الضبع أو حتّى مع اللبوءات؛ أنت لم تحرك ساكناً ولم يرجف لك رمش..
باختصار لم تفعل شيئاً لدرجة أنني تساءلتُ إن كانت قد أصابتك جلطةٌ مفاجئةٌ من رؤية السكين فشلّتك تماماً أو أعجزتك عن التعبير!!

وبما أنّ ضميري لا يطاوعني أصلاً على جريمةٍ كهذه فقد أفلحتْ طريقتك في تشنيجي وفي لحظةٍ واحدةٍ كنتَ قد انقضضتَ عليّ فألقيتني أرضاً وأنتَ تثبّت ذراعَيّ على الأرض وتقول:

- ألا انتبهت وأنت ترفع يدك بالسكين إلى الصاعقة التي تفرغ شحنتها في أعلى ما هو قابلٌ لذلك.. كم كان سهلاً على الله أن يشوي غيّك بها حتى لا ترفع رأسك أبداً..!

وشددت نبرة صوتك قليلاً وصحت بي:
- أخي.. إذا كنت لا تستطيع أن تصبر فلا تجعل الجزع يرميك في المهاوي!

فصحت بك:
- وفّر نصائحك لنفسك يا من قضى نهاره في الظل والمشرب!.. آه.. لقد نسيت أن أهنأك بزفافك من تلك الغوريلا ابنة الزعيم.. !!

قلتها وضحكة الخبث تبدّت على نواجذي فنهضتَ عني قائلاً:
- الإنسان بقلبه لا بقالبه.. وعلى الأقل فتلك المرأة تصلّي بحبورٍ وانتظام وليست مثلك....

وسكتَّ وكأنك نادمٌ على مواجهتي بحقيقتي بهذه الطريقة فضحكت أنا وقلت ساخراً:
- يا لك من مدهش!.. كيف عرفت أنني لم أصلي ولا صلاةً واحدةً منذ أن غادرتني!

قلتُها وانفجرتُ ضاحكاً أمام حيرتك وقد تغلغل الخبث في نفسي ثم أمسكت جوارحي وقلت بجدية:
- قل لي.. أتظنّه من العدل أن يعطيك اللّٰه تلك القدرة الخارقة ليرفعك بها ولا يعطيني على الرغم من أنّنا إخوة؟!

فانفجرتَ فوراً :
- كم مرّةً قلت لك أنها ليست قوةً خارقة؟!!.. إن اللّٰه لن يحرمك هذا وأكثر إن كنتَ مخلصاً وكنتَ كما يحبّ ويرضى.. أنت أو أيّ أحدٍ من خلقه!

ولم أسدّد إليك جواباً أكثر من أنني ولّيتك دُبُري ومضيت إلى وجهتي شامخ الرأس رافع الأنف وقد امتلأتُ غروراً كأقصى ما أستطيع وذلك لأقتل ضميري الذي كان يخزني صارخاً:
- كيف تجرّأت على قول هذه الكلمات أيها الجاحد؟.. أنسيت السبعة عشر عاماً الماضية وأنت تتقلب في النعيم؟!..
أنسيت كم تفاخرت على أخيك بما حباك اللّٰه ولم يكن لك يدٌ في الحصول عليه؟!.. ألأنه كان أفضل منك ليومين فقط من سبعة عشر سنة صرت تقول أن هذا ليس عدلاً؟!

ومشيتُ في تلك البرية الشاسعة المترامية الأطراف والمطر

ينهمر عليها من كل جانب.. وأخذت أتمتم بكبرياء:
- كل الكائنات مختبأةٌ من هذا المطر إلا أنا!!.. لا المطر ولا غيره سيوقفني بعد اليوم.. سأجعل الكون يعلم من أنا!

ولاح لي من بعيدٍ جماعةٌ من الفيلة مستكنةٌ بين عددٍ من الأشجار أو يجب أن أسمّيها شُجيرات بالنسبة لحجمها وكانت تتنتظر توقف المطر.. فانطلقت إليها من فوري وكلي ثقةٌ بأنها ما إن تراني على هذه الحال من الثقة بالنفس فستهابني كما هابتك..

وبالفعل وصلت إليها ودخلت منطقتها فصوّب القطيع نظرهم إليّ وأخذوا يحركون آذانهم الضخمة ويصدرون همهمةً عالية وبدا لي أنهم لم يعجبوا بي ولكنني على عهدي ماضٍ!

فاقتربت منها خطوتين أو ثلاثة.. هذا ما أذكره.. و٧لى الفور نهض لي كبيرها وحاولت جاهداً ألا أخاف ولكن رجلاي خانتاني - والحمد لله أنهما فعلتا- وأخذتا تجريان بلا هوادة بينما كان الفيل الضخم يلاحقني..ولا أظنّ أن المطاردة استمرت لأكثر من نصف دقيقة ولكن نتيجتها أني انزلقت بالطين وتدحرجت على منحدرٍ كان هناك وعلى شجيرة شوكٍ هبطت و..... آآآآخ....

استجمعت قواي بصعوبة لأنهض عن الشوك ووخزةٌ من هنا وأخرى من هناك كنّ يمزقن هذه الروح التي بين جنبي.. وأخيراً استطعت النهوض وأخذت أتلفّت بحثاً عن الفيل وحينما لم أجده عرفت أنه قد انتهى من أداء واجبه!

وبينما كنت أحاول إزالة الطين والشوك عني لاحظت أنّ في منخريَّ رائحةً كريهةً بكلّ ما قد تعني هذه الكلمة من معانٍ.. وبعد جهودٍ مضنيةٍ في إزالة الطين عن يديَّ نفضت الطين عن جفني وأخذت أفتش عن مصدر الرائحة ويا للهول...

وجهاً لوجه مع خنزيرٍ بريٍّ ضخمٍ يحكّ نابيه ويزمجر في وجهي.. لم أكن بحاجةٍ لأن يشرح لي أحدٌ أنني سقطت على جحره لأنني كنت قد انطلقت مسرعاً أدوس الشوك بقدمي الحافيتين لأفِرّ من وجهه..

وركضت مسافةً لا بأس بها قبل أن أخرج من منطقته ثم.. ثم تداعيت على الأرض منهاراً وليس هناك شعرةٌ من جسدي إلا وتألمني ..

ورغماً عن أنف هذا المغرور- الذي هو أنا- فرت الدموع وانطلقت الحرقة لتحرّق القلب والأحشاء بنيران الهوان..

- ما الذي انتزعني من فراشي الحريري من بين أهلي وألقى بي على الشوك والطين في وسط برية إفريقيا المقفرة؟!.. ما الذي بدل قلم الدراسة بمنجل الفلاحة؟!.. من الذي بدل أمني وأماني بعذابي وهواني؟؟

وأجابني صوتٌ شامتٌ من داخلي:
- ألست من كان يريد أن يسيح ويتسلى ويقضي عطلة صيفٍ مميزة؟

فانتحبت وبكيت وتمنيت أنّي لم أولد ولم أرى هذا اليوم.. ولكن ماذا ينفعني؟.. كان البرد والجوع يأكلان أحشائي والشوك والتعب ينهشان عضلاتي..والواقع واقعٌ.. ولا رافع له عني..

ونام الإنسان الجاحد الذي في داخلي وليته كان قد مات.. وتذكرتْ نفسي بعد أمةٍ، فأخذتْ تمارس هوايتها الأصلية في اللّوم والعتاب ومرير العذاب وصارت تصرخ في وجهي:

- هذا ما فعلتَه أنت حين جحدتَ وقلتَ أن الله لم يكن عادلاً معك رغم كل ما أعطاك..
- ولكنّني فعلتُ ذلك لأجلك.. كنت تريدين أن تكوني كبيرةً

ولم ترضي بالذل..
- أبداً!.. ما نصحتَ لي..كنت تدري بالعواقب ومع ذلك أقدمتَ على ذلك..
- ولكنّني لست الملوم.. أنت أيضاً سمعتِ تحذير أخي بأذنيك..
- لا تلقي اللوم عليّ.. أنت سمعته أيضاً.. وبدلاً من أن تحميني وتصونني عن المهلكات أقدمت بكل تهورٍ وفرطت في كرامتي..

وارتفع صريخها وأصمّ أذناي نحيبها وضاقت عليّ الأرض بما رحبت ولم.. ولم أجد ملجأً من الله إلا إليه..
فرغماً عن إرادتي صرتُ أصرخ وأنادي من بين الدموع والشهقات..
- يا الله.. سامحني..أرجوووك.....

وارتمى صدى صوتي في الفلوات وأنا أنادي رب السماوات.. عسى يجيب.. فكلّ تعاستي وعذابي تتلاشيان بكلمةٍ منه بل بحرف.. وما أهون الحرف على البشر فكيف برب البشر؟!

كل هذا الكلام -الذي لو سمعتُه في ما مضى لكنتُ استهترتُ به- كان ينبع من داخلي ويشهد عليه قلبي ويبصم بأصابعه العشرة على حقيقته.. نعم.. هذا هو أنا وأنت عند الشدائد..

هذا هو الإنسان!

لن أذكر لك كل شيء.. ولكن يكفيك أن تعلم أن اللّه رحمني.. بدايةً بتوقف المطر وتبدّد الظلام بسطوع شمس إفريقيا على البلاد والعباد ليأخذ بخار الماء في التصاعد ويجف الطين رويداً رويدا..
ومن جهتي فقد شعرت بالدفء الجميل لدرجة أنني غفوت رغم آلامي أو ربما أُغمي عليّ من شدتها!

عندما فتحت عيني فتحتها على تغريد الطيور فنهضت لأجد الطين قد جفّ عليّ فأخذت أقشره وأنزعه ..ألا وإنّ أفضل ما منّ اللّه به علي أن أغلب الشوك علق بالطين وانتزع معه فنهضت محبوراً ومن فرط سروري تناهى إلى خاطري أن أصلّي كما تفعل أنت فتوضأت وبدأت أصلي..

وطبعاً لم تكن تلك الصلاة مجرد صلاة.. حقيقةً عليّ أن أعترف أنها لم تكن نفسها تلك الصلاة التي كنت أصليها ساهياً أو متأففاً.. وتمنّيت حينها أنني لم أكن جريحاً حتى أصلّي وأصلّي...

ولكن نال منّي الجوع الشديد فاستلقيُت وأخذت أنتظر ما اللّه فاعلٌ بي.. وأثناء ذلك لاحظت أنني بجوار شجرة

فتتبعت بنظري أصلها فإذا بأجمةٍ معلقٌ عليها كراتٌ سوداء بجوار الشجرة..

وعدتُ بنظري إلى السّماء والغيوم قبل أن أنتفض مسرعاً إلى الأجمة وقد أن أدركت متأخراً أنه التوت البري..!

التوت البري نشتريه من السوق بورقتين ولكنّه حينها كان يساوي مال الدنيا !

وأخذت آكل ملء نهمتي ولا أظنّني قد تركت على الأجمة شيئاً منها.. بينما امتلأ قلبي حمداً لله وقد فهمت لأول مرة معنى الجوع والشبع ومعنى الشكر والعرفان!

واستلقيت على العشب على عكس ما سبق؛ مليء البطن هادئ الفؤاد وسرعان ما غرق ذلك الجريح في نومٍ عميق..

عندما استيقظت فجر اليوم التالي استيقظت نشيطاً وعلى الفور توضأت وصليت الفجر وما إن أنهيت حتى مضيت في أرض الله ولم تعد تلك السافانا سافانا بل صارت في ناظريَّ "مملكة الله" وصار كل ما يتحرك أو ينبس بصوتٍ "بقدرة الله" وصارت حركاتي "بإذن الله"..

ولو بقيتْ نفسي بذلك الصفاء الكافي لأرى الأمور بتلك الطريقة دائماً لاستطعتُ أن أفعل ما كنت تستطيع أنت أن تفعله بإذن اللّه ولكن راعني- ليخرجني من بين تفكّري ويعيدني إلى أصلي- صوتٌ عالٍ هو أشبه بصياح الديك فارتعدتُ رغماً عني ثمّ انتفضتُ مسرعاً نحو ذاك الصوت.. لم يكن بعيداً.. واقتربت رويداً رويداً.. وفتحت الأعشاب الطويلة ويا لسعادتي حين رأيت جماعةً من الديك الرومي تحوم في المكان ..في الواقع لم تكن إلا دجاجاتٍ مشويةٍ ماشيةٍ على الأرض في ناظريّ!

وعلى الفور نصبت لإحداها فخّاً وأمسكت بها بسهولةٍ والحمد للّه.. وكسحت مكاناً من العشب وأشعلت النار وبدأت حفلة الشواء وأخذت الرائحة الزكية تدغدغني فابتسمت لها بسمة جائع هي ليست أي ابتسامة!!

لا تسألني عن طعم ذاك اللحم فهو وإن لم يكن مزكىً بالبهارات أو الملح فقد كان طعمه لا ينسى.. صدق أو لا تصدق.. الطعام ليس إلا لجائع!
ومن بين همسات اللحم تناهى إلى سمعي فجأةً:
- أطعمني.. أطعمك اللّه!

فالتفتّ فإذا أمامي عجوزٌ نحيلٌ بلحيةٍ فضيةٍ شعثاء يرتدي

أسمالاً بالية ويمشي الحفاة وقد امتهن: " أطعمني.. أطعمك الله! "ويا لها من مهنة!.. ويا له من بلاءٍ قد صارت نفسي فيه تنازعني ومعدتي تصرخ بي وضميري يؤنّبني وروحي تذكّرني وتنوّه عليّ توبتي الآنفة..

واستمرّت هذه المعمعة ثوانٍ قبل أن يغلب خيري شري وأعطيه قطعةً من شوائي الشهي فابتسم لي ابتسامةً عريضةً وجلس بجواري يلتهمها بنهمٍ وشهيةٍ وهو يحكي لي -كأي عجوزّ- قصة حياته..

وعلى الرغم أني لم أكن أفهم كل ما يقول إلا أنني فهمت عندما وصلنا إلى الخاتمة أنه بعد موت أولاده في الحرب الأهلية باع بيته وامتهن التسول وصار يطوف بين المدينتين كل شهرٍ بحثاً عن الحسنات والمحسنين....

وطبعاً شدّ هذا انتباهي فلم أعد أسمع غيره ولا أدري إن كان قد سكت أم لا عندما سألته:

- إذاً تستطيع أن ترشدني إلى أقرب مدينةٍ من هنا؟
- طبعاً.. ولكنني بدأت منذ البارحة رحلتي إلى المدينة الأبعد ولا يمكنني العودة إليها ثانية..
- لا تعدْ.. فقط دلني على طريق الحافلات..
- تعني طريق العربات المكسوح.. حسناً.. إنّه ليس بعيداً من

هنا على أية حال..

ومن فرحي بالخبر أعطيته ما بقي من الشواء على حساب أنني سأصل اليوم إلى المدينة وهو لم يمانع أبداً.. وما إن انتهينا من الطعام حتى باشرنا المسير وصرت أساءل نفسي مَن العجوز بيننا؟!.. فقد كان يسبقني بأمتار ويضطر لانتظاري أخيراً..!

وبالفعل لم ينتصف النهار قبل أن نصل ذاك الطريق فودعته شاكراً ومضيت بالاتجاه الذي حدده لي ولكن بعد أن مشيت فترةً أدركت أن المدينة القريبة بالنسبة إلى سرعتي بعيدة..

فصليت وجلست أستريح قليلاً عندما سمعت صوت هديرٍ ما هو من أصوات الطبيعة فأصغيت بسمعي فأدركت أنه صوت حافلةٍ عجوزٍ من حافلات هذه البلاد فتلهفت وأخذت أنظر إلى ناحية الصوت بكل شوق وبالفعل ظهرت حافلةٌ زرقاء كالتي جئنا بها ووقفت جانباً أنتظر أن تقف لي ولكن..

مضى ذلك السائق النذل بدون أن يلتفت إلي.. فركضت خلفه وعلى العكس من سباقي مع ذلك العجوز استطعت أن أتخطى سرعة تلك الحافلة العجوز بقليلٍ من الجهد فوقفت في وجهه وأرغمته على الوقوف فأخرج ذلك السائق رأسه

من نافذته وصار يصرخ علي مهدداً وعلى الفور عرفته.. إنه نفس السائق النذل الذي جئنا معه وتركنا ومضى بلا أدنى مسؤولية..

فاعتراني هياجٌ من الغضب واقتربت منه منفعلاً وصرت أصرخ في وجهه أنا الآخر وأذكره بسوء صنيعه معنا وأطالبه بثمن التعرفة تلك بما أنني لا أملك مالاً الآن..

وعلت أصواتنا وجاوز شجارنا الحدود فنزل ذلك السائق من على كرسي عرشه ليصرعني ولكن هيهات فقد صقل المنجل والفأس عضلاتي..

وتصارعنا بشدةٍ وتهاطلت اللكمات مني وعلي حتى أوقعته في الإغماء أخيراً فتنفست الصعداء منتصراً وجسدي يشكو إلي أوجاعه ولفتت نظري تلك العيون الفضولية الواجمة التي كانت تحدق بي بقلقٍ من نوافذ الحافلة إلى ذلك الشريد الأشقر الشعر الأسود الجسد صاحب القصة الغريبة وقد صار مصيرها بين يديه .... فأجبتها أخيراً بالفعل لا بالقول..

جررت السائق ورميته على الكرسي المجاور لكرسي السائق وأخذت أقود الحافلة المهترئة بصعوبةٍ وقد كنت معتاداً

على سيارة أمي الحديثة التي كنت أسرقها منها بين الحين والآخر حتى أحسنت قيادتها..

لم يكن الأمر سهلاً ولكن لحسن حظي كان الركاب شيوخاً ونساءً وأطفالاً ليس بينهم من يعارضني فأخذت أجرب وأجرب حتى استقر الأمر لي فانطلقت أخيراً على بركة الله واستغرق الأمر ساعتين أو أقل قبل أن تبشرنا المدينة بأولى بشارتها فهلل جميع الركاب تهليلة فرح ليس فقط لأنهم وصلوا وجهتهم بل لأنهم أيضاً نجوا من هواجسهم حولي..!

وفعلاً أوقفت الحافلة عند أول مصف ونزلنا منها جميعاً تاركين سائقها في غفوته الإجبارية وما إن مشيت بضعة خطواتٍ حتى شعرت بشخصٍ يتبعني فالتفت فإذا بكهلٍ أشيبٍ أبيضٍ من النوع البشوش ينظر إلي نظرات فضولٍ واستفهامٍ فبادلته النظرات هنيهةٍ قبل أن يسألني:

- ألست ابن ....؟

وسكت متردداً بسبب منظري المذري بينما تذكرت أني رأيت وجهه بين ركاب الحافلة ووجدت نفسي أصيح فجأةً بابتهاج:

- أنت صديق أبي!

- إذاً صدقت ظنوني!.. يا سلاااام!.. سيفرح أبوك الآن ويهجر أحزانه أخيراً!..

وأمسك بيدي يسحبني عبر طرقات تلك المدينة وهو يحكي لي عن تعاسة أبي طيلة الفترة الماضي وأنه لم يعد إلى إفريقيا إلا منذ أيام بعد أن فقد الأمل بالعثور علينا..
وسرعان ما دخلنا في البناء وصعدنا الدرج و طرق الرجل باب شقة والدنا بلهفةٍ واضحة فأجاب أبي بنبرةٍ كئيبةٍ من الداخل :
- ادخل.. الباب مفتوح..

ودخلنا لنجد شيخاً جالساً على مكتبه لا يرفع نظره عن الورق الذي في يده.. لا.. إنه ليس شيخاً.. إنه أبي!!!!
ووقفت مشدوهاً ... أين شبابك يا أبي؟!.. أين الشعر البني الجميل؟!.. ومن أين جاءت تلك الغضون التي على وجهك؟!.. وما أنذلها إذ جاءت لتحكي لناظرها غصص العذاب المرير وآثار دموع الليل وأحزان النهار...

هذا عني.. أما عن صديق أبي فقد وقف أمام مكتب والدي وأخذته الضحكة وهو يقول له:
- احزر من جاء لزيارتك اليوم!
وأجاب أبي بكل ملل وكآبة:

- من؟

ولما أجابه صديقه بضحكةٍ مكتومةٍ أخذه الفضول فرفع ناظريه قليلاً دون أن يرفع رأسه..وما إن رآني حتى وبحركةٍ لا إرادية ارتد إلى الوراء وغاص في كرسيه وقد ضاقت حدقتاه ومرت ثوانٍ نتبادل فيها النظرات دون أن يلفظ أحدنا ببنت شفة ثم حاول الوقوف والخروج من وراء مكتبه واقترب مني ووضع يديه على كتفي وصارت عيناه شارعاً لآلاف الكلمات التي كانت تمر فيهما كالبرق..

وأخيراً أمطرت.. وسالت دمعتاه كاللؤلؤ على خديه وهو يقول بصوتٍ مرتجف:
- ما بالك يا بني؟.. ما لك يا حبيبي؟..
واحتبس صوته فشهق شهقةً قبل أن يقول بأسىً يقطر من كلماته:
- أراك... أراك نحيلاً كأنك لم تأكل إلا القليل.. أراك متسخاً كما لو أنك لم تستحم منذ أن تركتك.. أراك كئيباً كما لو علكك القهر وبصقك.. أراك جريحاً كما لو كنت خرجت من قصاص .. أراك ملوناً كما لو كنت قد نجوت من عراك.. أراك خشناً كما لو أنك لم تلبس منذ أشهر.. أراك مخشوشناً كما لو قضيت الأيام في العمل الشاق..

ثم شهق بعذابٍ وأردف:
حتى ذقنك الأمرد اكتسى بلحية..

وهنا لم يعد يستطع أن يوقف دموعه عن الانصباب كالسيل العرم لتدمر ما بقي من نضارة وجهه... أما أشد ما يؤسفني أنني من شدة خجلي من منظري المذري وأنا الذي كنت أباهي الكون بشكلي وأناقتي ..أجبت كل هذه العواطف الجياشة والنظرات الحانية بأن قلت له ببرود:

- يا لك من مدهشٍ يا أبي!!.. عرفت قصتي كلها دون أن أنبس بكلمة!.. فدعني الآن أستحم وآكل وأستريح.. فأنا لم أعد أطيق نفسي..

وتركته وتركني ونظراته تعانقني ومضيت لشغلي.. أولاً استحممت وأظن أن حمامي ذاك استغرق ساعات..

وعندما خرجت وجدت أن أبي قد جهز لي ثياباً جديد ولما لم أجده في البيت صرت أجرب الثياب وأنظر إلى المرآة وأساءلها فيما إذا كانت سحنتي لا زالت جميلةً أم لا..!

وقبل أن تجيبني بجوابٍ مرضٍ كان أبي قد عاد وعلى وجهه شبح بسمة وفي يده مختلف صنوف الطعام الشهي

فالتهمتها بكل شهيةٍ وجدتها وهو يراقبني بكل رضاً ويصب علي مختلف صنوف المشاعر الذي وجدها..

وما إن أنهيت طعامي حتى صليت العشاء وبحثت عن مكانٍ لأنام فقال لي أبي:

- ادخل غرفتي ونم على سريري يا بني..
- ولكن ماذا عنك ياأبتي؟.. أين ستنام؟
- لا تأبه.. يحق لك الدلال الآن.. أما أنا فأستطيع النوم هنا أو هنا.. في أي مكان..

فتبادلنا بسمةً ثم دخلت الغرفة وغصت في السرير ..لأول مرةٍ منذ أشهر عادت إلي إنسانيتي واعترتني الراحة وباسطتني السعادة وهكذا غطتت ملء عيني في نومٍ عميق لم أفق منه إلا على تغريد العصافير..

ونهضت نشيطاً لأصلي الفجر وقد غمرني الرضا وما إن خرجت من باب غرف النوم حتى نالت مني الدهشة ليس أيّ نوال فقد دارت بي الدنيا حين رأيت أبي جالساً منتصباً على الأريكة بكل صحوٍ وكان لا يزال بثياب العمل وعيناه الحزينتان ساهمتان إلى النافذة..

فأدركت على الفور أنه لم يعطني سريره إلا لأن الفرح

بعودتي والشوق إلى معرفة قصتي لم يكونا ليسمحا له بنوم.. وقد قضى الأب المسكين ليله ينتظر بكل شوقٍ وحرقةٍ خلف الباب تلك الشمس التي غابت في الشفق لكي تفيق...

لم أسأله لم فعلت هذا يا أبي.. فهو لم يكن ليعرف جواباً لهذا السؤال ولا أنا ولا أحدٌ ممن قد يسمع هذي القصة.. اللهم إلا إن أجاب أحدنا بكلمة أب.. ويا لها من كلمةٍ تبدي لنا أنها تحوي حرفين بينما هي تضم كوناً بأسره..!

وما إن رآني حتى انفرجت أساريره وعلاه الأمل..فداهمني خجلٌ شديدٌ من أسلوبي الفظ في مقابلة كل هذه المحبة بهذه الأنانية والجفاء ولم أستطع ستر ذلك الشعور فانكببت على أبي أعانقه وأقبل جبينه وحالي يقول: سامحني يا أبي... فلكم علمتني هذه المحنة أموراً كنت عنها في غفلةٍ وضلال..

وأجابني أبي بصوتٍ مبحوح:
- إذاً ..ألن تخبر أباك بما حدث؟
- على رأسي يا أبي..

وعلى الفور قصصت على أبي قصتنا بكل توددٍ وقد حاولت

قدر الإمكان أن أستر سوءاتها عنه لكي لا أزيده تعاسةً إلى ما به..

- وهكذا تركته وقد تزوّج بابنة الزعيم وصار وليّ العهد!!

- وابنة الزعيم هذه.. أليست امرأةً سوداء من بنات القبيلة؟

- بلى.. لو رأيتها يا أبي.. هي في غاية القبح!!.. يظنّون أنّ الجمال بوضع أقراطٍ من الخشب في شفاههن! ..بالنسبة إليّ فقد كنت أغضّ نظري عن بنات القبيلة لأنّني كنت أشعر بالغثيان كلّما لمحت إحداهن..!

وأطلقت ضحكة سخريّةٍ بينما أجابني أبي بكلّ جديةٍ :

- وما الذي أعجبه فيها إذاً؟!.. كيف سيطرت تلك المرأة على عقله؟!

- ومن قال أنها سيطرت على عقله؟!.. لا شيء يسيطر على عقل مؤمن إلا الصلاة!

- و ما علاقة الصلاة بتلك المرأة؟!.. أرى أن الكلمتين متضادتين أصلاً..!

- القصة وما فيها أن مؤمن يستجلب قلوبهم لكي يعتنقوا الإسلام ولذا كان لا بد له من الإقامة بينهم والزواج منهم..

- هاااا.. الآن صدقت أنك تتكلم عن ابني مؤمن!

- محقٌّ يا أبي.. هذا الكلام هو ما يناسبه.. ولا غرابة في ذلك

فأنت من سميته مؤمن..
- بل هي أمّه من سمّته "مؤمن"..

وأخذ أبي نفساً أبي كأنه يتذكر الماضي البعيد وأخذ يحكي لي:

-" عندما استنشقت رائحة الرجولة وفرح بي أبي كنت الابن الوحيد لأبي فسارع إلى خطبة امرأةٍ من صالحات بنات الشيوخ من أجلي ولكن هذا لم يوافق مزاجي وذلك طبعاً لأنني كنت قد التقيت أمك الشقراء الفاتنة في جامعة روسيا ولأننا ائتلفنا وعدتني أن تتبع ديني من أجل أن يقبل أهلي بها..

وفي تلك الأثناء قرر أبي تزويجي ولأن أبي كان شديداً لم أستطع أن أعترض على قراره أبداً وتزوجت أم مؤمن بالفعل ولكن ما مرت أشهر حتى توفي والدي وورثت تركته وقويت شوكتي..

فتركت أم مؤمن في ليلةٍ ليس فيها ضوء قمرٍ كما يقولون وذلك بدون أن أقول لها شيئاً أو أترك لها مالاً أو أسأل عن الجنين الذي كان يسبح بين أحشاءها..
وعلى الفور سافرت إلى روسيا وأحضرت أمك وتزوّجتها

في بلادنا ..

ولكنّ فرحتنا لم تكتمل لأنّنا أمضينا سنيناً نحلم بالأولاد ولما طال الانتظار كثرت النزاعات وتوفّي جدّك والد أمك فورثتْ أمك عنه ذلك المال فازدادت ضراوتها وشيئاً فشيئاً لم تعد حياتنا تطاق فقررنا الافتراق ولم نكن ندري أن اللّه قد قدّر لك الحياة في تلك الأيام..

وهكذا طلّقتها وخرجت غاضباً.. إلى أين الآن؟.. تزوّجت مرّتين ولم ينفعني ذلك.. وفي تلك اللّحظة تذكرت أمّ مؤمن وأنّها كانت حاملاً حين تركتها فساءلت نفسي عن حالها وهل أنا أبٌ لابنٍ أم لابنة..

فاستخرجت مفتاح البيت من بين أشياءي القديمة ومضيت من نفس الطريق القديم..
كانت الحارة قد تغيرت بعض الشيء في تلك السنين الخمس ولكن باب البيت لم يتغير..

ووضعت المفتاح في القفل وفاجأني أن الباب قد استجاب للمفتاح.. فدخلت بهدوءٍ وأغلقت الباب خلفي .. كان البيت كما أعرفه وسرعان ما أدركت أنه مسكون لأنه كان نظيفاً..

وما لبثت لحظات قبل أن ينفتح باب غرفة النوم ويخرج إلي طفلٌ في الخامسة من عمره.. هرول إلي والضحكة على وجنتيه وأمسك بيدي وقبلها وهو يقول:
- السلام عليكم يا أبي.. أنا مؤمن.. قد جهزنا انا وأمي البيت وقد كنا في انتظارك!
- تنتظرونني؟!

وشدهت كيف عرفني وقال أنه ينتظرني وهو لم يرني قبلاً!.. ولكن بدلاً من أن أستفهم منه مضيت نحو غرفة النوم مطلاً فوجدت أم مؤمن وهي...."
- دعني أقولها.. كانت تصلي!
-" طبعاً!.. لقد حزرتَ!.. وأخذت أراقبها حتى أنهت صلاتها

فنزعت الغطاء عن رأسها واستقبلتني مبتسمةً ورحبت بي ولم تسألني حتى أين كنت وكأني تركتها من أجل عملٍ نبيل.. !.. يا لها من امرأةٍ غريبة الأطوار..
هذا ما قلته في نفسي بينما كنت أسألها:
- هل لي أن أعرف كيف عرفتي أنني سآتي اليوم فأنا نفسي لم أكن أعرف؟

فضحكت وقالت:
- ولكنّ اللّه كان يعلم!.. وقد أراني اللّه ذلك في منامي..

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات!

وبينما كنت مدهوشاً من هذا الأمر الغير الاعتيادي قالت:
- تفضل.. الطعام جاهز..
ووضعت لنا الطعام الذي استغربت أنها كانت تسميه طعام وعندما نظرت إلى مدى نحولها أدركت مدى الظروف الصعبة التي كانت تمر بها بينما كنت أنا في أوج الرفاهية..

ومع ذلك لم تفاتحني يوماً بكلمة عتاب أو لوم فأدركت أن أبي كان قد زوجني واحدةً من أجمل نساء العالم.. جمالها كان في قلبها يضيء لنا!

وهكذا عشنا بعدها سوياً بسعادةٍ زوجيةٍ وعائلية.. ولم يخطر لي أن شيئاً من ماضيّ مع أمك قد يعود يوماً بعد أن علمت أنها عادت إلى روسيا حتى فاجأني أحد أصدقائي -الذي كان زميلاً لي في جامعة روسيا - أنه رآها بصحبة شابٍ يشبهني..

فأرسلت أستطلع الأمر وسرعان ما عرفت أن لها ابناً منسوباً إليّ فصعقني الخبر وبينما كنت أتدبر إجراءيات سفري إلى روسيا جاءني الخبر أن أمك قد فتك بها السرطان وأضحت تحت التراب ..

فسارعت إليك وقلبي يعتصر ألماً إذ أني لم أدري بوجودك قبلاً وتركتك تنشأ هذه النشأة البعيدة عن الدين أو الأخلاق.. وانك لم تفهم ما تعني كلمة صلاة إلا منذ أشهر "

- هون عليك يا أبي.. ليس الأمر إلى هذه الدرجة.. المهم أني فهمتها.. قبل البارحة!..

ولكن أبي لم ينتبه إلى ما قلت بل أردف بحزم:
- ولن أدع مؤمن يعيد مثل هذا الخطأ مع أولاده من هذه السوداء.. فأنا لا أستطيع ان أتخيل أحفادي ينصبون العظام فوق رؤوسهم و خواصرهم أويعملون تلك الطقوس والحركات الغريبة ..
- أو يشربون دماء الأبقار..
- وهل تلك القبيلة تشرب الدماء؟
- نعم.. وطعمها مقزّزٌ جداً..!
- أبله!.. كيف تذوّقتها؟!!
- على الرّغم من أن مؤمن رفض ذلك بشكلٍ قطعيٍّ وأصرّ على أن ذلك حرام إلا أنني أحببت ان أخوض هذه التجربة وقلت في نفسي أنني سأعتاد عليها مثل ما عتدت شرب القهوة المرة ولكن النتيجة لم تكن مرضيةً أبداً..

فانتصب أبي مغتاظاً وهو يقول:
- لن يكون أحفادي بأذكى من عمهم الساذج.. لن أسمح لهم أبداً أن يأتوا إلى الحياة من هذا الطريق.. لا أدري كيف خرج مؤمن بهذا القرار؟!..كيف تكون امرأةٌ لم تسمع لفظ الجلالة في حياتها قطّ بأفضل من خطيبته تلك التي هرّأت جبهتها من كثرة السجود؟!

وانطلق أبي نحو الباب فوراً والغضب يقطر من وجهه فالتفت ليراني جالساً بكل برود فصرخ بي:
- ما الذي تفعل؟!.. انهض هيا!
- أنهض؟!.. وما علاقتي أنا بهذا الموضوع؟!
- ما علاقتك؟!.. ومن الذي سيدلّني على الطريق غيرك؟!
- ماذا ؟!.. تريد مني أن أعود إلى بريّة إفريقيا؟!.. مستحيل!!
فترك أبي مقبض الباب ونظر إليّ بعد أن أطلق زفرة غضبٍ:
- استحممتَ وأكلتَ واسترحتَ ونمتَ.. الآن صرتَ من حقي! انهض هيا!

ولم أجد مفرّاً من عينيه الثاقبتين فبدأت بالتعلّل والتحجّج :
- ألا تقدّر مدى الدرجة الحرجة التي وصلت إليها؟!.. ألم تر مدى تورّم قدمي وتلوّن أعضائي؟!..دعني أرتح أسبوعاً على الأقل..
- أسبوع؟!.. سنذهب اليوم وسنرتاح بعد هذه الرحلة كما

يحلو لك..
- ولكنني جريح وعظامي كلّها تؤلمني وبالكاد وصلت إلى هنا..
- سنركب في السيارة ستجلس مستريحاً ولن تمشي أو تبذل أي جهد..
- ولكنه لا زال الصباح يا أبي.. وحتى أنّي لم أفطر..
- خذ بعض الطعام معك وكله في الطريق..
- وماذا عن صلاة الفجر؟.. لم نصلي حتى الآن وهي تكاد تفوتنا!

وهنا كتم أبي أنفاسه بغيظٍ وقال وهو يعضّ على أسنانه :
- هل عندك حججٌ أخرى بعد؟!

وانطلق نحو الحمّام ليتوضّأ وهكذا فعلت أنا وصلّينا ولكنّه لم ينفعني شيءٌ بعد.. فانطلقت معه رغماً عن أنفي بعد أن اصطحبت كثيراً من الطعام والشراب معي..

وعند الظّهر تقريباً اجتمع لأبي مرافقوه من البيض والسود المعتادين على مناخ إفريقيا وظروفها الاستثنائية وانطلقت سيارة السفاري على بركة اللّه..

ولا تسأل عن كمية كلمات التأفف التي رشنتها على الجميع

أثناء تلك الرحلة وكم نظرة شزرٍ ومقتٍ صوّبتها إلى السافانا بكل حقدٍ وغيظ..

ولكنّنا لم نفرّ من هبوط الليل قبل أن نصل فحاول السّائق زيادة السرعة كي نعجّل في الوصول ولكن بدلاً من ذلك انفجر إطار السيارة وكاد هذا يودي بحياتنا لولا أن نظر إلينا الرحيم..!

وبذل الجميع جهداً لتحسين وضع السيارة ووضع الإطار البديل ولكن يا للخيبة عندما اكتشفنا بعد أن انطلقنا قليلاً أن خزان الوقود قد ثقب وصار إصلاح السيارة بدون ضوء النهار من المستحيل..

وأوقف السائق محرك السيارة فسادت أصوات نباح الكلاب المكان وخاصةً أنّه كان يبدو مقترباً فسادتنا الهيبة والخوف وجهز السّود بنادقهم استعداداً لكل خطرٍ ولكنّ هذا كان قليل الفائدة في وسط كل هذا الظلام فالبدر كان متغيّباً اللّيلة والمصابيح اليدويّة كانت قد تكسّرت عند الحادث..

وأرهفنا جميعاً آذاننا مترقبين لحظة الحقيقة التي سادت الموقف وقال السائق الإفريقي بخوف:
- أظنه قطيعاً من الكلاب البرية المتوحشة وهي جائعة بعد

أن حبسها المطر..

فأجاب آخر بصوتٍ كسير:
- إذاً أعدادهم كبيرةٌ ولن تؤثر بها بنادقنا القليلة.. فمهما استطعنا أن نقتل سيكون هناك آخرون ..لا أظن أن لنا أملٌ في النجاة..

وهاج الجميع لهذا الخبر فمنهم من غلبته العبرات ومنهم من صار يرثي أهله أو شغله ونهض أبي ليصلي العشاء الأخيرة ويدعو عسى ينجينا الله من الموت المحتم .. بينما بقيت أنا أراقب الجميع بلا مبالاة معتقداً أنه لن يكون إلا ما كتبه الله.. فلم يكن قد مضى عليّ الكثير من الوقت منذ أن مررت بموقفٍ أصعب من هذا وأخرجني الله منه سليماً معافى..!

كان من الواضح أن الكلاب في أثرنا قريبةٌ وهي تقترب أكثر فأكثر وشيئاً فشيئاً ورغماً عني تحرك الخوف في قلبي وبدأت أنفاسي تتقطع من شدته وبحثت بسرعةٍ عن حل وتمنيت لو كنتَ معنا لتحل القضية بثقتك بربك التي لا تتزحزح وهذا ما يحبه الله..!

وإذاً لم أجد نفسي ولم يجدني الجميع إلا منتصباً على

السيارة كأعلى ما أستطيع ووضعت إصبعَي في فمي وصرت أصفر وأصفر حتى ملأ صفيري السافانا وصار السائق يحاول إيقافي وآخرٌ يصرخ بي:
- أتريد أن تدلهم على مكاننا بدقة؟!

وشعر أبي بشديد الخجل من تصرفي فصار يشدني ويقول لي:
- اسكت.. ألا تعرف أن الصفير يستجلب الشياطين.. ألا يكفينا الكلاب حتى تحضر لنا الشياطين أيضاً؟!
- ولكن يا أبي.. قد حدث لهذا استثناء.. فأنا هذه المرة أستجلب بصفيري ولياً من أولياء الملائكة.. صدقني!

وصفرت صفرةً ملأت عنان السماء.. وسرعان ما بدا لنا من بعيد ضوءٌ برتقالي اللون يقترب منا وصرنا نترقبه بفارغ الصبر ونتلهى به عن المصير الأسود الذي ينتظرنا..
تُرى أيسبق ضوء المشعل إلينا أم تسبق الكلاب؟.. يا له من سؤالٍ ويا له من جواب..!

وعرفنا جميعاً هذا الجواب عندما سمعنا أول طلقة بندقية أطلقها أحدنا وهو يصرخ:
- جاؤوا.. جاؤوا..

وركز الكل بنادقهم محاولين أن يصيبوا تلك الأهداف الخاطفة في الظلام وراعنا أن وقف أحدهم وأطلق عواءً عالياً إلى السماء.. من الواضح أنه كان يستدعي الباقين

ومن بين أصوات العواء سمعنا صوت امرأةٍ تصرخ :
- مؤمن... مؤمن.. إنهم هنا.. تعال..!

ربما لم يفهم كلامها تماماً أحدٌ سواي وأدركت منه أن صفيري قد أدى عمله في استجلابك ..
فسرعان ما أطللت أنت من بين أعشاب السافانا الطويلة وفي يدك المشعل فأعطيتَه للرجل الذي وجدتَه أمامك وانطلقتَ نحو تلك الكلاب صائحاً مردداً كلمات الأذان بصوتك الهادئ الرخيم:
- اللّه أكبر..اللّه أكبر.. لا إله إلا اللّه ..!

وما أسرع ما خنعت الكلاب ولم يجرؤ عليك أحدٌ عليك إلا واحدٌ غلبه الجوع فأدبه رفاقه!.. وهكذا قدتَ مسيرة الكلاب مبتعداً بينما تنفسنا جميعاً الصعداء واكتشفنا لحظتها أننا كنا نرجف وأن أسناننا كانت تصطك..!

وأخذ الجميع يتبادلون النظرات المشدوهة وقال أبي شبه غير مصدق:

- أحقاً هذا ابني؟.. أحقاً هذا مؤمن؟

فأجبته ضاحكاً:
- وهل كنت تظنني أمزح معك يا أبي؟!
لكن هيهات!.. سرعان ما باغتتنا جماعةٌ أخرى من الكلاب المتوحشة..فصرخنا جميعنا بدون وعي:
- يا اللّه!!

فأخذت تلك المرأة بلباسها الإفريقي البسيط المحتشم الذي يغطي جسدها ووجهها تصرخ وتناديك ولما تأكدتْ أنك لن تسمعها شحذت شجاعتها وهجمت نحو الكلاب وقد فتحت يديها صائحةً :
- بسم اللّه..اللّه أكبر.. اللّه أكبرا!

وحبسنا جميعاً أنفاسنا وغضضنا أبصارنا حتى لا نرى الكلاب وهي تنهشها ولكن المفاجأة أن الكلاب لم تقربها!.. بل تراجعت وانسحبت تكتيكياً حتى اختفت..! وهلل السود من بيننا بينما انشدهنا نحن .. وقلت لأبي ضاحكاً:
- هل رأيت ما فعلته المرأة التي لم تسمع لفظ الجلالة في حياتها إلا من أيام يا أبي؟!

فمسح أبي جبهته وقال:

- لقد أدركت الآن أن الأمر بمدى صفاء النفس لا بكم فعل الجسد..آآه.. يا له من موقف مخجل.. جئت لأخرب حياتها فأنقذت حياتي..

ومرت لحظات قبل أن تعود أنت من بعيد فركضت تلك المرأة إليك وصارت تبشرك ضاحكةً:
- اللّه يحبني!.. لقد حماني!
- طبعاً فاللّه يحب الطاهرات يا عزيزتي..

وعلى الفور شدتك تلك المرأة قائلةً:
- هيا بنا نشكر ربنا على ما أكرمنا.. هيا بنا نصلي..

وبالفعل أخذتما بالصلاة بينما صرنا جميعاً نهنئ بعضنا بالسلامة أما أبي فصار يراقبك بمحبة حتى أنهيتما الصلاة وانطلقت زوجتك باتجاه قريتها بينما ركضت أنت إلى أبينا وعانقته بكل شوقٍ وصرت تقبله وتقبل يديه وقلت له:

- أبي جئت إفريقيا من أجل أن أعتذر إليك عما ارتكبته في حقك فسامحني أرجوك..
- دعك من هذا يا بني.. لقد نسيته..وقد جئت إلى هنا من شدة شوقي إليك..

فأكملتُ أنا وقد دليت رجلَي من السيارة:
- ...ولأنه لم يعجبه ما أقدمتَ عليه..

فغضضت بصرك قليلاً ثم قلتَ:
- أبي .. حدث كل هذا من أجل أن تحضر عرسي ولكن الأمور حدثت بهذه الطريقة وكنت آسفاً جداً لأن أكون في عرسي دون تشريفك..
- أفهم ذلك.. ولكنك غاليت في اختيار عروسك..
- يا أبي.. القلوب البيضاء قد تجد مكانها في الأجساد البيضاء والسوداء على حدٍ سواء.. ربما يأتي يومٌ يجعل الله فيه هذه المرأة حوريةً بديعةً في الجنة نتمنى جميعاً أن نكون مكانها..!

وتبادلتما النظرات المعبرة في اللحظات التي بدت لنا فيها المشاعل قادمةً إلينا فغصتُ أنا في السيارة مختبئاً منهم وسرعان ما تحلق أفراد القبيلة حولنا وأخذوكم فرحين في موكبٍ احتفاليٍ إلى القرية وهكذا ساد الصمت حولي إلا من أصوات الطبيعة..

وخرجت من السيارة متململاً.. ما الذي أجبرني على العودة إلى هذه البرية المقفرة؟!.. يارب..

وأخذت أحدق بالسماء المرصعة بالنجوم وعندما مللت صليت العشاء وحاولت أن أنام في السيارة عندما أحسست بحركةٍ من الأعلى ففتحت عيناي لأرى شبح إنسانٍ فوقي فنهضت لأجدك واقفاً بجوار السيارة فتبادلنا النظرات قبل أن تلقي علي السلام وتقول لي:

- أقلقني أني لم أجدك بينهم..
- وهل تريدني أن أقدم لهم نفسي على طبقٍ من ذهبٍ ليقتلوني؟!
- يقتلوك؟!.. ولم؟!

فاستغربت سؤالك بينما أجبتني ضاحكاً:

- إن غريمك حيٌ يرزق بفضل اللّه !
- ماذا؟!.. حي؟!

وضربت رأسي مصدوماً وقد ذهبت بطولتي المزعومة أدراج الرياح فأجبتني باسماً:

- عندما استطعتَ الهروب أدركتُ أن شيئاً قد حدث له بالتأكيد.. فانطلقت إلى بيته وصعقت عندما رأيت فعلتك الشنعاء فأنا لم أكن أتخيل منك أن تسمح لنفسك بفعل شيءٍ كهذا..

فسارعت إلى طبيب القرية ليعالجه ونجاه اللّه بفضله وكم

فرحت عندما جاء عصر هذا اليوم إليّ لأعلمه الصلاة فقد أثر فيه أنني أنقذته بعد كل ما بدر منه اتجاهي طيلة تلك الشهور..

فأجبتك ببرودٍ وسخرية:
- آآآ ..مدهش..

ثم أردفتُ بغضب:
- سامحته؟!!.. أنا لن أسامحه أبداً.. ليس فقط من أجل الأشهر الطويلة المريعة التي قضيتها في العذاب.. بل من أجل هذه الكدمات الفظيعة على جلدي.. لقد كاد يكسر عظام جسدي وكأنه ليس فيه حياة..
بل إنني أظن فعلاً أن بعضاً من عظام يدي مشعورة إن لم تكن مكسورة.. أتريد مني أن أسامحه وأفرح له بعد كل هذا؟!.. ليذهب إلى الجحيم!

وعلى صدى كلماتي زفرتَ زفرة حيرةٍ وأسىً ثم حاولت أن تغلق الموضوع فمددتَ يدك إلى خصرك وأخذت منه كيساً قائلاً :
- هاك بعض الطعام يا أخي..
- طعام..هه.. أنا عندي طعام.. وأطيب من طعامك بكثير..

وأخرجت موزةً من كيسي لأغيظك بها لكنك خيبت ظنّي ولم تغتظ كعادتك بل قلت لي:

- بالصحة والعافية.. على أيٍّ ألن تأتي معي؟.. فوالدنا والباقون ينوون البقاء هنا لعدة أيام..

- عدة أيام!!

وضربت وجهي ثانيةً بينما قلت لي:

- على أيٍّ سنعتذر من الزعيم وإذا سامحك فيعني أن الجميع قد سامحك.. هيا بنا!

- وإذا لم يسامحني؟

- سوف يسامحك من أجلي إن شاء اللّٰه..

- وإذا ضربوني ثانيةً فلن أسامحك أبداً هذه المرّة وخاصةً أن ظهري المجروح لا زال يحرقني حتى الآن..

ونهضت من السيارة بتصنّع وأردفت:

- هو ليس لك عليّ أية منّة.. فلو لم آتِ من أجل أن أدلّ أبي على مكانك لكنتُ الآن في سريري نائماً ملء جفنَيَّ..

- ومن قال أنّني أريد أن أمتنّ عليك؟!.. لا يمكنني طبعاً أن أدع أخي نائماً في العراء هكذا.. وخاصةً أنه جريح..

وهكذا مضينا نحو كوخ الزعيم ولوني الأبيض -وإن كان

مشوباً بالمكدرات- كان كالشمعة في الظلام يشد نظرات الجميع إلي.. ودخلنا لنجد ذلك الزعيم بتاجه الريشيّ الملوّن جالساً ملءُ مجلسه الهيبة وسرعان ما ألقيتَ التحية عليه باحترام وقلت له:
- سيدي.. هذا أخي الذي هرب قد جاء اليوم إليكم معتذراً فأرجو أن تقبلوا اعتذاره..

وامتعض وجه الزعيم وكأنه يضطرّ إلى فعل شيء يكرهه ثم قال:
- لأجلك فقط سأسامحه.. لأنك تقيم الحق لك وعليك ولكن هذا لن يتكرر إن أعادها..
- جزاك اللّه خيراً يا سيدي.. إن اللّه يجزي المحسنين..

وخرجتُ أنا من الكوخ واتجهت حيث رأيت واحداً من مرافقينا داخلاً فدخلت وراءه فوجدت والدي جالساً وعليه وشاحٌ من الخز الإفريقي ففوجئ برؤيتي وقال لي:
- أين كنت كل ذلك الوقت؟.. فاتك الاحتفال الجميل الذي أقاموه لنا..
- لو كانوا يريدون الاحتفال بي لاحتفلوا بي منذ أشهرٍ عندما جئت لأوّل مرّة..

فأجابني صديق أبي ضاحكاً:

- أنت الآن تستحق الاهتمام فقد أصبحت أخو صهر الزعيم ولم تكن كذلك من قبل..

ورميته بنظرةٍ أظنّها الآن نظرة غيرة وقلت له متكبّراً:
- أفضّل أن أكون عامل نظافةٍ في طرقات المدينة على أن أكون صهر هذا الزعيم في هذا المكان الخالي من الحضارة والمليء بالقذارة.. على الأقل أستطيع هناك أن أرى وجوهاً حسنةً وأستنشق رائحة الطّعام الطيب..

ولم آبه إن كان أحدٌ قد أعجب بكلامي أم لا بل أخلدت إلى النوم فوراً.. وفي صباح اليوم التالي أفطرت مع الجميع وكأنني لم أفعل شيئاً فلم يكن أحدٌ منهم يستطيع أن يزيد على كلام الزعيم حرفاً..!

وهكذا مضى اليوم على أحسن ما يرام وكان اليوم التالي هو يوم الجمعة وطبعاً أقمت أنت صلاة الجمعة ليحضرها جميع الذكور في القرية..

وبالفعل اصطففنا مع أفراد القرية كتفاً على كتفٍ في مظهرٍ من اللا عنصرية وفاجأني أن أحدهم تقصّد الوقوف بجواري وعندما حدّقت في وجهه عرفته فامتعضت رافضاً ان أقف بجوار ذلك البغيض الذي كان يستخدمني وقد

كانت يده اليسرى مضمّدةً بسبب طعنتي التي أخطأت قلبه..

وحاولت الابتعاد عنه ولكنه أمسك بيدي قائلاً:
- لقد آذيتك وآذيتني كما أنك أفسدت محصولي الذي أجبرتك على العمل فيه والآن يجب أن نتسامح.. فإن أخاك أخبرنا أن الإله يحب أن يرانا متسامحين ومتحابين ولذا يجب أن نفعل ذلك..

وتتأتأت الكلمات في فمي.. يا لبساطة هؤلاء الناس!.. سمع تلك الكلمات مرّةً فصارت قانوناً لديه يهون عليه كل شيءٍ لأجلها.. كم نسمع- نحن أهل الدين- هذه الكلمات والمواعظ ولكن من منا يطبقها؟!

ولكنّني إذ عجزتْ لغة الكلام استعملتُ لغة الأعين فرمقته رمقاتٍ ملؤها الحقد والازدراء ولكن مع بداية الخطبة -التي بالمناسبة كنت أنت ملقيها- لم نستطع أن نكمل حوارنا الشيّق فجلسنا لأجل استماع الخطبة..

وعندما خرجنا من المسجد الجديد اقترب مني ثانيةً وفتح يدي ووضع فيها شيئاً فنظرت فإذا به حجرٌ كريمٌ أحمر اللون لمّاع..!
وبينما كنت مدهوشاً برؤيته قال لي معتذراً:

- هذا لك إن سامحتني..

ولم أجد بداً في النّهاية بعد هذا الاعتذار الثمين من الموافقة على ذلك ومسامحته فتصافحنا وعن بعضنا صفحنا وقد أخبرني الصائغ فيما بعد أن هذا الحجر هو الياقوت الأحمر الثمين ونظراً لحجمه الكبير فقد اشتراه مني بثمنٍ عالٍ زادني ثراءً إلى ثرائي..

وقضيت أياماً في تلك القرية كانت هذه المرة مختلفةً بما أنني لم أكن مضطرّاً لعمل السخرة طيلة النهار.. وقد أتحفونا بطيب الطعام بعد أن صاروا يذبحون الخراف بطريقةٍ شرعيةٍ ويذكّونها كما أنهم لم يعودوا لشرب دماءها..

وهكذا قضيت أياماً من فترة نقاهتي عندهم بالطعام المغذّي والهواء العليل..

وأخيراً أُصلِح خزان السيارة فعبأها السائق بالوقود الذي كان معه ووقفت أنت وأفراد القبيلة مودّعين وأخذت تودّع أبي بلغتنا طبعاً وتقول له:

- يعزّ علي أن أتركك يا أبي وأنت -صِدقاً- أعزّ شخصٍ عليّ في هذه الدنيا.. كما أرجو أن تبلغ عنّي أهل خطيبتي

السابقة شديد اعتذاري وأنني قد وهبت لها ما أعطيتها من مال.. وإذا التقيت شيخي في الجامع فبلّغه وداعي عني..

وتنهّدتَ بصبرٍ وعانقتَ أبانا بمحبةٍ وقبّلت يديه ورأسه وسرعان ما قبّل جميع أبناء القبيلة الموجودين رؤوس وأيدي آباءهم.. لم يكن من الصعب أن نعرف سبب تضحيتك وتضحية أبي بك من أجل البقاء معهم وتعليمهم أصول دينهم وقد أصبحت قدوتهم المثلى وشيخهم الذي لا يُعصى..!

وهكذا ركبنا السيارة راحلين وقد حمّلنا الزعيم عدداً من الهدايا وشيّعناك والقرية بنظراتنا الأخيرة وأخذ الهواء المُختَرَق يطيّر شعورنا ونحن في طريقنا إلى مكاننا الصحيح.. إلى المدينة!

وبعد فترةٍ أخرج أبي كيس الماء فشرب وناولني فرفضت قائلاً:

- أشكرك يا أبي.. ولكنني معتادٌ على الشمس فأنا لا زلت لا أشعر بالعطش بهذه السرعة..

- عجيب!.. مع أنني كنت أظنّك معتاداً على جوّ روسيا البارد..

- كنت.. ولكن شمس إفريقيا ذوّبت جليدي..

فقال لي أبي مازحاً:
- وهذا ما يسعدني أنه قد ذاب الجليد عن قلبك فلانت قساوته وصرت تصلي!!

وأردف أبي ببسمةٍ جمّلت محياه:
- وبهذه المناسبة وبما أنه صار عليّ الآن -مَجازاً- اعتبارك ابني الوحيد فأنا أفكر أن أفرح بك عوضاً عن أخيك..

ونظر أبي إلي لينظر وقع كلماته على قلبي فرأى ابتسامةً عريضةً قد غزت وجهي فقال مشترطاً:
- خطبةٌ فقط إلى أن تنضج قليلاً..
- ما دام الأمر كذلك فسأبقى في شمس إفريقيا قليلاً أخرى حتى أنضج بسرعة ..!!!

وضحك الجميع من جوابي بعد أن كنت أبثّ لهم طيلة الأيام الماضية مقتي الشديد لإفريقيا وانتظاري للخروج منها بفارغ الصبر..!

وفعلاً عدنا بعدها إلى بلادنا وخطب أبي لي ابنة عمّه الشابة وقد سعدتُ بها ونالتْ إعجابي وأكملتُ دراستي وتخرجتُ من كليّة الأدب العربي بعد أن أعجبتُ أيضاً باللّغة العربية

بعد أن تعلّمتها تماماً وحفظت القرآن بفضل اللّه..

صحيحٌ أنني لست بحاجةٍ إلى العمل أصلاً نظراً لثرائي الموروث ولكنني أعمل معلّماً في أحد مدارس الشريعة للأجانب الخيرية وقد بدلّت اسمي الروسي إلى اسم "مسلم" العربي.. والآن وبعد مرور سبع سنواتٍ تقريباً على عودتنا من إفريقيا أصبحتُ أباً لبنتٍ وصبيٍ طلب مني أبي أن أسميه "مؤمن" إعادةً لذكراك ولم يكن يدري أنك ستعود إلينا بعد كل تلك السنين..""

فابتسم مؤمن لأخيه قائلاً:
- حسناً.. "الحمد للّه" تزيّن كلّ ذلك.. وأشكرك لتذكيري يا أخي العزيز.. ولكنّني للأسف لم أذكر شيئاً يذكر مما قلته..
فهل لي أن أعرف لم أنّني عندما عدت إلى هنا عدت فاقداً الذاكرة هكذا؟
- حسناً.. حدث ذلك منذ أسبوع عندما كان أبي في إفريقيا من أجل عمله كالعادة وخطر له أن يزورك زيارته السنويّة..

وفاجأه عند وصوله أن أفراد القبيلة لم يستقبلوه بالحفاء المعتاد فشعر أن في الأمر شيئاً وسرعان ما أخبره الزعيم بحزنٍ أن مرضاً فظيعاً قد اجتاح القرية وأنهم فقدوا العديد من الضحايا بما في ذلك ابنته التي كانت زوجتك وابنكما

وأنك أنت نفسك طريح الفراش منذ أيام وقد اعتلتك الحمى وهم جميعاً في حالةٍ من الحداد لأجلكم وقد عزّ عليهم فراق واعظهم ومعلّمهم ولكن لم يكن لهم في ذلك حيلة فأخذوا يتربّصون بالقدر بكل صبرٍ واحتساب..

فأخبرهم أبونا أنه قد يجد لك في مدينته العلاج وأنه يجب أن يأخذك إلى الأطباء بسرعةٍ قبل أن يفوت الأوان فسارع زعيم القبيلة إلى تجهيز موكبٍ لتوديعك وحملوك على الأكتاف إلى المدينة وشيّعوك آسفين باكين..

وتولّى أبي بعدها أمور علاجك الصعبة حتى شفاك اللّه وعافاك بفضله ونقلك إلى بلادنا وقد زال عنك الخطر بإذن اللّه وها أنت لسعادتنا تفتح عينيك اليوم لأول مرةٍ وقد عرفتُ الآن أنك فاقد الذاكرة بعد كلّ تلك الحمى.. لكن من يدري؟!.. سيجعل اللّه بعد عسرٍ يسرا.. قد يكون هذا كله خيراً لك وخاصةً أن خطيبتك التي تركتها هنا لا زالت تنتظرك جاهلةً حقيقة غيابك ولم تبدّلك بأحد!

وتنهّد مسلم باسماً ثم قال:

- وأنا شخصياً من سيتولى مصاريف عرسك وزواجك وذلك بعد أن عرفت أنك- منذ أن تشفعّت لي عند الزعيم وتركتك

وخرجتُ من الكوخ- تحمّلتَ عني كل التعويض الذي كان عليّ أن أعوضه أهل الأراضي الذين كنت قد أفسدتُ عليهم محاصيلهم وأمضيتَ السّنين تسدّد عني ديوني وليس لك في ذلك أدنى ذنب..

إنّ هذا هو أقلّ ما أشكرك به يا أخي العزيز على حسن صنيعك ومعروفك العظيم الذي لن أنساه لك أبداً ما حييت لأنني الآن أعلم تماماً أن قلبي ما كان ليصفيه اللّه لولا أنّك رفعت عني حقوق الناس علي..

وفي تلك اللّحظة صدح صوت أذان العصر الطاهر ليملأ أجواء المكان فانتفض مؤمن فوراً ونهض من سريره ..أو حاول لأنه سقط فوراً فقال له أخوه وهو يساعده على العودة إلى سريره :

- اصبر قليلاً يا أخي.. فقد مضى عليك أكثر من عشرة أيام لم تحرّك ساكناً فكيف تستطيع الوقوف بتلك السهولة؟!

فجلس مؤمن ساهم الفكر شارد العينين ثم قال بحزن:

- لا حولا ولا قوة إلا باللّه..يبدو أنني سأضطر إلى الصلاة قاعداً هنا هذا اليوم..

فأطلق مسلم ضحكةً عاليةً وقال:

- أراك لا زلت تذكر رخص الصلاة!

وتنهد باسماً وقال:
أنت أنت يا أخي.. بذاكرةٍ أو بلا ذاكرةٍ لا زلت أنت!!!

وأمسك مسلم بذراع أخيه وقال:
- أخي.. لا زلنا في السباق.. والسباق لم ينتهِ بعد!

فابتسم مؤمن بحماسٍ وقال:
- وشرط هذا السباق ألا تقول وصلتُ حتى تصل..!

... 《تمّت بفضل اللّه العظيم》 ...

